Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحمد أمين

فيض الخاطر

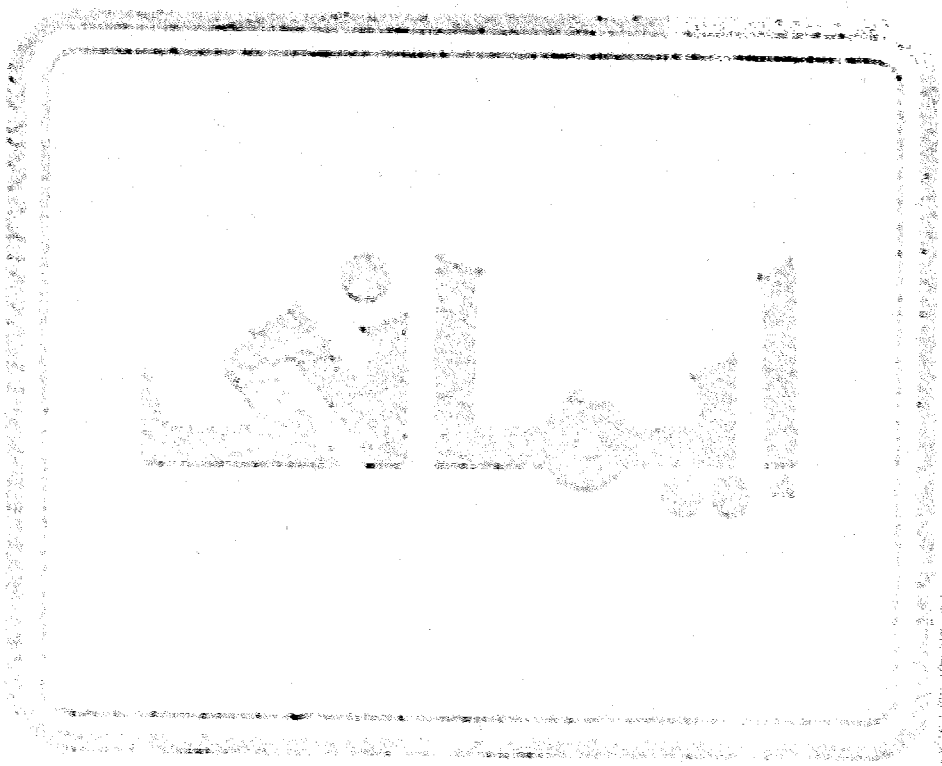

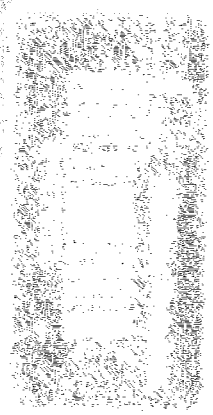

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤلفات أحمد حسين

إيمان وكتب أخرى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

© دار الشروق

الطبعة الثانية ... ص.ب ... تلفون ...
بيروت ص.ب ... تلفون ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤلفات أحمد حسين

المجلد الأول

- إيمانى
- حكومة الوفد
- رسالة إلى هتلر
- وراء القضبان
- الزواج والمرأة
- رسالة فى الحرب
- نحو المجد
- الأرض الطيبة
- فى الإيمان والإسلام

دار الشروق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإهداء

إلى راعي العلم والتقدم

الى الأمير زايد بن سلطان

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

والذي لولا عونه الأدبي والمادي لما صدرت هذه المجموعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعريف

هذا هو المجلد الأول من عشرة مجلدات مماثلة - وربما اثنى عشر ومن نعم الله علىّ انه أبقانى حيا - لأشهد مولد هذا العمل والأمر الذى لاشك فيه - ان هذا المجلد هو أخطر المجلدات على الإطلاق - فإن كتاب «إيمانى» الذى يؤلف حجره الأساسى - لم يعد له وجود - وأصبح من المتعين إنقاذه من الضياع - وسوف يرى المطالع لهذه المجموعة التى سوف تتناول عشرات من الكتب التى ألفتها على امتداد نصف قرن تقريبًا - أنها لم تخرج عن الخط المرسوم فى «إيمانى» حتى ماكان من هذه المؤلفات قانونيا - كتشريع العمل وعلاقات العمل - أو فنيا - كمجموعة قصص «أزهار والدكتور خالد واحترقت القاهرة» أو إنسانيا مثل «الطاقة الإنسانية - والأمة الإنسانية - ونبى الإنسانية» أو حتى عندما شرعت فى تفسير القرآن - مما سوف تتضمنه المجلدات التالية - سوف يرى القارئ - ان الأفكار التى دعوت إليها ظلت ثابتة - حقا قد أكون قد توسعت فى هذا الجانب من أفكارى - فى فترة من الفترات - ولكنى إذ استعرضها بعد هذا الوقت الطويل - أرى ثبائا - لا يستطيع أن يدعيه مفكرون كانوا معاصرين لى - وانتقلوا عندما امتد بهم العمر من النقيض إلى النقيض.

ذلك إننى ولدت (١٩١١) فى ظل الاحتلال البريطانى - وكانت إنجلترا تعتبر سيدة العالم وكانت الحضارة الأوروبية:- تعتبر هى الإمام والقدوة لمصر والعالم الإسلامى - إذا أريد له النهوض من كبوته - وقد وجد من مفكرى مصر وكتابها - وقادتها - من دعا إلى ذلك - ولكنى أحمد الله - أننى منذ أمسكت القلم لأكتب - وأنا مؤمن بمصر - وأسلوب الشعب المصرى فى الحياة - مؤمن بالمبادئ الإسلامية - وأنها خير ما عرفت البشرية - أو يمكن أن تعرف من مبادئ - وأن أوروبا إذا كانت قد تقدمت فبمقدار ما نهلت من هذه المبادئ - وأن العالم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلامي إذا كان قد تخلف - فبمقدار ما ابتعد عن هذه المبادئ - وتعلقه بأذيال أوروبا - فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا قد بدأت تهجر المبادئ الإسلامية والدينية بصفة عامة - أى تنكر الروح والمعنويات والقيم - وعلى رأسها كلها - الإيمان بالله وأصبحت المادة - هى كل شيء - وأحمد الله أننى برئت من كل ذلك - وأنذرت البريطانيين - فى عقر دارهم - عندما كانت ممتلكاتهم لا تغيب عنها الشمس - إن كل ذلك إلى زوال - ولم أكن أتصور أبدًا - ان ذلك سيتم بهذه السرعة - وإننى سوف أعيش لأرى مصداق ما قلت .

وأنا إذ أقدم هذه المجموعة وأعرف بها (١٩٨١) قد ازددت إيمانًا بآرائى وأفكارى - وإذا كانت أمريكا من ناحية - وروسيا من الناحية الأخرى - لا يزالان يؤثران بمعتقداتهما المادية - فإن الدمار ينتظرهما - ما لم يعودا للتمسك بالقيم الدينية الروحية .

قصة هذه المجموعة :

ولخروج هذه المجموعة إلى النور بصدور المجلد الأول منها - وهى الكتب التى ألفتها وطبعتها ونشرتها - خلال الحرب العالمية الثانية - وقبلها وفى أعقابها - أقول إن لصدور هذه المجموعة قصة يجب أن تروى - لإظهار كيف أن إرادة الله وحدها - هى الفاعلة لكل شيء فى هذا الكون «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» وإنه عندما يشاء فهو يهيىء الأسباب - فمكرة هذه المجموعة تراودنى منذ أمد بعيد - وكان تصورى أنها إذا تحققت فسيكون ذلك بعد وفاتى .

ولكن شاءت نعمة الله علىّ وفضله - أن يجعلنى أقدم لهذا العمل فى حياتى فهيأ لذلك الأسباب وتبدأ هذه الأسباب بالأخ عز الدين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إبراهيم المستشار الثقافى للأمير زايد بن سلطان - أمير دولة الإمارات - فمنذ عدة سنوات وهو يرغب فى إيصال بعض الخير لى - وغنى عن البيان - انه لابد أن يكون آنس من الأمير ما يشجعه على هذا التفكير وإلا لما ظل ماضيًا فيه بكل هذا الإصرار عبر العديد من السنين وأخيرًا تبلور الأمر - فى رغبة دولة الإمارات - ان تقدم لى مبلغًا من المال - ولما كنت أعيش بعون الله فى خالة «قناعة ورضا» فقد اعتذرت أكثر من مرة عن قبول «الهبة» ولكن عندما يشاء الله يسبب الأسباب - كما قدمت - فإذا بى أقول فجأة - لأخى الأستاذ محمد المعلم - صاحب دار الشروق للطباعة والنشر - وقد كان هو الطرف الذى تدور معه المفاوضات : «لا مانع عندى من توجيه هذه الهبة لطبع هذه المجموعة» وهكذا بدأ العمل وهكذا شاء الله - أن أشهد ميلاد هذه المجموعة - وهى يوم أن تتم بعون الله - فستكون ذخيرة ينتفع بها إلى ما شاء الله .

والحمد لله رب العالمين

أحمد حسين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إيمـــــــانى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١

رحلة فى الصعيد

كنا فى رحلة كشفية فى صعيد مصر ، على رأسها حامد أفندى نبيه المدرس بالمدرسة الخديوية . وكان يرافقنا أستاذ الكشافة الكبير عبد الله سلامة أفندى . وكان معسكرنا على ضفة النيل الغربية فى الأقصر . هبطنا إلى أرض المعسكر فى وقت الظهيرة ، وكانت الشمس تسطع وترسل أشعتها الملتهبة . وكان علينا أن نبادر بتشييد الخيام حتى نجد ما نستظل به فأخذنا نعمل ونعمل حتى انتهينا من هذه المهمة الشاقة . بعد مجهود دام ساعتين كان العرق يتفصد من جباهنا خلالها ، وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، فاستلقينا فى الخيام أشبه بالمغمى عليهم ، ناسين أننا لم نتناول طعاماً منذ الأمس وأن الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر .. وكنت أحس فى أعماق نفسى بخيبة أمل فقد كنت أمنى نفسى برحلة سعيدة ممتعة فإذا بنا نبدأ وسط الهجير والتعب .. وها نحن ملقون داخل الخيام ، أنفاسنا مبهورة . وصدورنا ضيقة فنحن فى حالة أقرب إلى الإغماء منها إلى النوم كما قدمت آنفاً .. ولكن الشمس سرعان ما آذنت بالمغيب .. وعند الأصيل تظهر أشعتها الحمراء كل فتنتها .. وإذا بنا وقد استيقظنا من نومنا وغسلنا رؤوسنا بالماء البارد وبدأ نسيم الشمال ينعش نفوسنا ويداعب ملابسنا وشعورنا ..

دوى البوق مؤذنا بميعاد إنزال العلم الذى كان يرفرف فوق ساريته الشامخة مظللا المعسكر بأسره .. دوى النفير فأسرعنا جميعاً حول سارى العلم ووقفنا فى مثلث متساوى الأضلاع وارتفعت رؤوسنا إلى هذا العلم الأخضر الجميل .. ولست أرى أن فى الدنيا بأسرها ما يخفق له الفؤاد كرؤية علم الوطن العزيز بعيداً عن العمران والمساكن .. فهو فى المدن وفوق نواصى الأبنية العامة أشبه شىء بالزينة والزخارف .. ولكن العلم فى الصحراء ، أو فى الجبال ، أو فى البحار ، أو بعيداً عن أرض الوطن ، يصبح شيئاً آخر .. يصبح مصدراً للحياة والقوة والسعادة .. فهو يؤنسك فى وحدتك ، وهو يشجعك ويشد أزرك .. علم الوطن العزيز فى الغربة هو أعذب الأناشيد وأكثرها سحراً فى نفس المواطن المغترب .. ولا يشعر بجمال ما أحدثك عنه إلا هؤلاء الذين سافروا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاركين وطنهم العزيز كيما تتلقفهم بلاد جديدة كل ما فيها متنكر لهم ومتجهم .. كل ما فيها يشعرهم لذعة فراق الأوطان ، سل هؤلاء عندما يرون علم بلادهم ماذا يكون أثره فى نفوسهم . إنهم ليرتعشون وتطفر الدموع من أعينهم .. ذلك أن علم بلادهم يذكرهم بأعزائهم وأحبابهم .. يذكرهم بحياتهم السعيدة فوق الأرض التى درجوا عليها ، والسماء التى استظلوا بها .. وفى كلمة : يذكرهم العلم بأغلى ما تنطوى عليه الحياة ، وأعنى بها العزة والوطنية والكرامة .. أما فى الصحراء وفى القفار فإن العلم يؤثر فى النفس بما هو أبلغ .. ذلك أنه يطرد وحشة المكان ويملؤه أنساً وحياة .. ومن هنا كان هؤلاء الذين يضربون فى مجاهل الدنيا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، مستكشفين ومستطلعين ومستعمرين ، ينصبون أعلام بلادهم أول ما يفعلون كيما تربطهم بأوطانهم ويستمدون منها الحياة والحيوية والنشاط .. ولست أحسب أن موسيقات الدنيا بأسرها لو أنها عزفت تكون أشجى على النفس والروح من حفيف العلم وهو يرفرف فوق الرؤوس ولذلك فقد وقفت لأول مرة فى حياتى أمام العلم وكأننى فى صلاة .. وعندما هتف بنا الرئيس « تحية العلم ـ تعظيم سلام » ارتفعت يدى إلى جبهتى فى حركة لا شعورية بينما اشرأبت رأسى إلى قمة السارى تتابع العلم وقد أخذ يهبط مع غروب الشمس .. وحانت منى التفاتة إلى زملائى فإذا بهم منتصبو القوام مرفوعو الأيدى .. تسطع أعينهم بهذا اللهب المقدس الذى تعكسه العيون عندما يكون الإنسان فى نشوة روحية .. كان العلم يهبط من ثانية لأخرى ولكن هذه الثوانى كانت تعدل عندى الدهور ، ذلك أن روحى حلقت لأول مرة كيما تشرف على هذا الوطن العزيز وتفكر فى أمره . ولست أستطيع أن أصور لك إحساسى ساعتئذ فلست أشك فى أنه كان إحساساً غامضا لم يتضح بعد .. فقد كنت قريب عهد بحياة من نوع آخر لم تكن مما يساعد على توضيح المشاعر الوطنية .. وإذن فقد كانت المشاعر تتلاطم فى نفسى وتتجاذب .. وعندما وصل العلم إلى مستقره وتلقاه الرئيس وصاح بنا « جماعة ـ اعتدال » أحسست بمولود جديد قد نما فى روحى وأفكارى ، ولم يكن من الوضوح بحيث أعرف ما هو وما هى حدوده ، ولكنه كان من القوة بحيث أشعر بوجوده فى نفسى .. ولقد كان ذلك يملأنى رضا واغتباطاً بالحياة .. وعندما أعطانا الرئيس الأمر بالانصراف أخذت أنظر إلى ماحولى من الفضاء والرمال والنيل الذى ينساب فى ليونة وعذوبة .. وهذه الجبال التى تقع إلى يسارنا والتى سنرتقيها فى الصباح كيما نهبط بعدها إلى وادى الملوك والملكات .. أما على الضفة الأخرى فقد بدأت أنوار الأقصر تطالعنا وهذا الفندق الشهير « ونتر بالاس » قد انعكست أضواؤه على المياه فأخذت تتلاعب بها .. وشرع الظلام يرخى سدوله وأخذت العوالم والكائنات تزداد فتنة .. نظرت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حولى وفوق رأسى واستنشقت عبير الهواء المحيط بى فإذا بى أستنشق طويلاً وأفتح صدرى ورئتى للنسيم كأنما أريد أن أطوى هذه الكائنات وهذا الجمال فى أعماق نفسى .. لقد كان يوماً خالداً من أيام حياتى وبالرغم من أنه قد مر عليه حتى كتابة هذه السطور ثمانية أعوام ، لأنا كنا فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ ، فلا يزال منقوشاً بكل حوادثه حتى التافه منها فى ذاكرتى .. ذلك أنه كان بدء التطور فى نفسى ودخولى إلى عالم جديد .. ولقد كنت أحس هذا التطور وهو يتم بشدة وأنا جد مبتهج .. حتى إذا جلسنا ذلك المساء حول النار نتجاذب أطراف الحديث طلب منى أن أتكلم فساءلت إخوانى : أيشعرون جميعاً بالسعادة التى أشعر بها ؟ .. أم أنها وقف على ؟ .. لقد كان يُخيل إلىّ أننى أسعد الناس طرا فى هذه الساعة .. ولعمرى فقد عشقت مصر وامتلأت غراماً بها وهياماً ، وأى شىء فى الدنيا يملأ الحياة سعادة وهناء أكثر .. من الحب ؟!

فى وادى الملوك

كان علينا أن نبكر فى اليوم التالى لزيارة وادى الملوك وقد أخذنا نتسلق هذه الجبال الشامخة حتى أشرفنا على وادى الملوك .. فشرعنا فى زيارة المقابر المختلفة .. هذه لسيتى ، وتلك لرمسيس .. وثالثة لتوت عنخ . وقد كنت فى كل مرة كلما انتهيت من زيارة إحدى المقابر أشعر بالوجوم وبالرغبة فى البكاء ، فهذه الدهاليز داخل الجبل كانت تملؤنى إكباراً لهذا الجهد الجبار الذى نحتها .. حتى إذا توسطنا حجرات الدفن وأبهاءها راعتنا كل هذه الألوان وكل هذه النقوش والتى خيل إلى ساعة أن وقع بصرى عليها للمرة الأولى أن مصلحة الآثار قد فرغت من إعادة طلائها أخيراً .. فسألت من حولى متى دهنوا هذه الألوان للمرة الأخيرة .. فأجابونى بضحكة فيها كل معانى السخرية والإشفاق من هذا الجهل .. ذلك أن الألوان قد نقشت منذ نيف وأربعة آلاف سنة .. وعلى الرغم من سخريتهم فإنى لم أصدق هذا القول ساعة أن قالوه لأنه كان يبدو مستحيلاً ، ولم أكن من هؤلاء الذين يصدقون كل ما يقال لهم .. أجل .. مستحيل .. مستحيل أن تكون هذه الألوان الزاهية .. هذه النقوش البراقة .. مستحيل أن تكون هى بذاتها من صنع الفراعنة وهى التى يبدو بجلاء أن النقاش قد فرغ منها بالأمس .. ومع ذلك فقد أكدوا لى هذه الحقيقة مرة ثانية وثالثة فامتلأت بهذا الوجوم الذى أشرت إليه ذلك أنى أخذت أفكر فى هؤلاء الأقوام ومدنيتهم .. هذه المدنية التى بدأت تبدو لى بكل إعجازها فهذه القصور المشيدة فى باطن الجبل ومن صميم الصخر .. ترى ماذا يمكن أن تكون هذه الأيدى التى نحتتها .. وماهى هذه الآلات التى استعانت بها ماذا يمكن أن تكون هذه الآلات التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تذيب الصخر وتحيله كأنه العجينة اللينة حتى تنحت فيه هذه الدهاليز وهذه الحجرات وهذه الأعمدة ، إن مدنية القرن الحديث بكل ماتملك من نظريات ومخترعات وأدوات لتعلن إكبارها لهذا العمل المعجز ، فما قيمة ماوصلت إليه البشرية من علوم وفنون وطيارات وبرق إذا كان ماقام به أجدادنا منذ ألوف السنين يبدو بالنسبة لنا معجزاً ومحيراً للألباب .. وفى مقابر الملوك لا يسعك إلا أن تسأل نفسك سؤالاً لا جواب له .. فعلى أى ضوء نقشت كل هذه الرسوم الدقيقة والتى تزين الجدران بل تزين الأرض تحت قدميك وتزين سماء الحجرات مادام من الواضح أن نور الشمس لايمكن أن ينفذ إلى داخل الجبل ..؟ تحت أى ضوء استطاع الفنان الماهر أن يجيد هذه النقوش وأن يبرزها هكذا فى كل هذه الفتنة وهذا الرواء الذى يحتاج فى إتمامه لنور ساطع كضوء النهار ..؟ يقولون إن نوراً واحداً هو الذى لايرسل دخاناً ولايترك آثاراً وهو نور الكهرباء .. فهل عمل الصانع المصرى فى ضوء الكهرباء ..؟! هذا هو السؤال الذى لايجيبك عليه فطاحل العلماء ..

وأنت مضطر أن تسلم بعجزك وأن تعترف أن هؤلاء الجدود قد عرفوا من أسرار الطبيعة وفنونها مالم نعرفه حتى الآن .. وعلام نذهب بعيداً ونتساءل عن الضوء فهذه الألوان فى ذاتها .. هذه الألوان الباهرة بأحمرها وأزرقها وأصفرها كيف استطاعت أن تقاوم كل هذه الألوف من السنين وأن تبقى حتى اليوم لامعة ساطعة كأنما فرغ منها الفنان منذ لحظات .. يقولون إن المانيا الحديثة هى أم الكيمياء .. يقولون إنهم يستطيعون أن يخرجوا من الهواء سماداً وأن يحولوا كل شىء إلى غذاء .. يقولون إنهم يحولون العناصر وإنهم يصطنعون كل شىء .. فما بال ألمانيا بعلومها وجامعاتها وعلمائها عاجزة عن أن تدرك السر فى ألوان مصر القديمة وأن تخرج من الألوان مايقاوم البلى بضع عشرات من السنين لامئات من القرون كما هو الحال مع قدماء المصريين . مابال علماء الألمان ، بل الدنيا بأسرها ، يقفون حيارى أمام هذه الألوان الساحرة والتى هزأت بالزمن وهزأت بالشمس والمطر والحرارة والبرودة وكل الظواهر الجوية .. هزأت بكل عناصر الفناء وبقيت حتى اليوم تسطع فيخيل إليك أنها قد صنعت بالأمس . أليس هذا إعجازًا أى إعجاز ؟

وأليست علوم القرون الحديثة لايزال أمامها أشواط وأشواط كيما تدرك أسرار علوم مصرنا القديمة وفنونها ..؟ على أن معجزة الألوان ليست هى المعجزة الوحيدة التى تنطوى عليها مقابر الملوك وتثيرها فى نفسك .. بل إنها لتحمل معجزة أكثر عمقاً وتأثيراً وأعنى بها تحنيط الموتى .. فهذه القدرة العجيبة على حفظ الجسم من الفناء عشرات الألوف من السنين تبدو بالنسبة لعلوم القرن العشرين عملاً مستحيلاً .. فكل ما استطاعوا الوصول إليه هو أن يحنطوا الجسد سليما لعدة سنوات كما فعلوا فى روسيا بجسد لينين .. على شريطة أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعيدوا تحنيطه من عام لآخر .. ولم ينقض على هذه العملية عشرون سنة حتى بدأ الانحلال يدب إلى الجسد .. وقد لا تمضى سنوات أخرى حتى يستسلم جسد زعيم الشيوعية إلى الفناء ، وهذه هى كل مقدرة الحضارة فى القرن العشرين .. أما علوم أجدادنا فقد استطاعت أن تحافظ على أجساد الفراعنة هذه الألوف من السنين . ولست أقول تحافظ على هياكلها ، بل تحافظ على أدق خواصها فقد استطاع الأطباء أن يشخصوا كثيرا من أمراض مصر القديمة عن طريق هذه الأجساد المحنطة ، فقد وجدوا فيها آثار العمليات الجراحية المختلفة ووجدوا فيها كثيراً من الظواهر التى تخلفها بعض الأمراض .. ولازالت هذه الأجساد قادرة على أن تقطع عشرات الألوف من السنين لو أنهم لم يزعجوها من مراقدها ويخرجوها من هذه القبور التى أعدت لحفظها ولصيانتها والتى تتناسب وعظمتهم ومجدهم .. كيما يحشرونها حشرا داخل دواليب زجاجية فينظر إليهم الناس كما ينظرون إلى قطعة الآثار أو دمية من الدمى .. فيتطرق إليها الفساد ويتعلم الناس واحسرتاه كيف ينسون جلائل أعمالهم وهم يرونهم كالرمم تعافهم الكلاب .. ياله من إجرام مابعده إجرام . ويالها من شناعة وقذارة ، إن المهانة التى تعيشها مصر اليوم ، والذل الذى تعانيه ، وظلمات الجهل التى تكتنفها والتى يرمز لها سوء معاملة الأجداد والعبث بأجسادهم وعرضهم فى المتاحف ، لايمكن مقابلتها إلا بشىء واحد هو هذه العظمة وهذا الخلود الذى سطره هؤلاء الأجداد . وحاضر مصر وماضيها طرفا نقيض ، كالعدم والحياة ، والنور والظلام ، واليأس والرجاء .

كنت أفكر فى ذلك كله فامتلأت بالوجوم والحسرة وأنا أقوم بهذه المقارنة بين الأمس واليوم .. وأنا أستعرض مظاهر الجحود والنكران لأجدادنا .. بل أستعرض الشقة البعيدة التى تفصلنا عنهم . ذلك أن المصريين قد قطعوا كل الصلات التى تربطهم بهؤلاء الجدود فأخذوا يتحدثون عنهم ويشاهدون أعمالهم تماما كما يفعل السواح والأجانب .. أستغفر الله بل أقل تقديسا واحتراما مما يفعل السواح .. فالمصرى يخيل له إذ يسمع حديث قدماء المصريين أن هؤلاء قوم كانوا من العفاريت لايكاد يتمثل صورتهم فى ذهنه وفى خياله إلا كما يتصور الغيلان ومردة الجان .

كنت أفكر فى هذا وأشباهه ونحن نتحسس طريقنا نحو المعسكر ، وسرعان ماشعرت بالدم يغلى فى عروقى .. وأحسست بدقات قلبى وقد تزايدت .. ولم أكن أميز الطريق تحت قدمى فكنت أصطدم وأتعثر . وإنى لأذكر أننى سقطت إلى الأرض أكثر من ثلاث مرات فى ذلك اليوم وعندما عدنا إلى المعسكر وجلسنا لنتناول العشاء أذكر أننى لم أتذوق طعاما . كنت أرى إخوانى وزملائى يملأون الدنيا صراخا وتهليلاً ويضحكون ويلعبون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فامتلأت دهشة وعجبًا . إذ أقارن ذلك بما فى نفسى من ثورة غضب وضيق .. وبينما كانوا يتجاذبون أطراف الحديث حول النار كما هى عادتهم . هذا يقص نادرة . وذاك يمثل دورا من الأدوار . وثالث يغنى إحدى المقطوعات الحديثة .. تمددت بعيدا عنهم فوق الرمال وكان القمر يرسل أشعته فيغمر الكون بالهدوء والسلام .. بينما كانت مياه النيل تتكسر على الشاطئ الرملى فى خرير ودوى خافت ، فأخذت أسائل نفسى ترى ماذا كانت عليه هذه البقاع وأى أناس كانوا يجلسون جلستى هذه . وأى أفكار كانت تدور فى رؤوسهم . وسرعان ما أحسست أن الحاضر لايفترق عن الماضى وأن النفس البشرية هى فى كل عصر وزمان . وأن المادة لاتفنى . والجواهر لاتتغير . وكل ماتتناوله الأيام بالتغيير هى الأغراض التافهة .. فما لاشك فيه أن النيل كان يجرى كما يجرى اليوم وأن هذه النجوم كانت تلمع كما تلمع اليوم .. وليس شك فى أن كثيرا من الناس جلسوا مجلسى هذا على مر السنين يستمتعون بضوء القمر ويرسلون لخيالهم العنان .. ولو أن هذه الجبال التى تحيط بنا أنطقها الله لحدثتنا عن هؤلاء الذين اعتادوا أن يسيروا فوقها منذ ألوف وألوف من السنين .. ولأدهشنا أن نسمع منها أننا جميعا نتشابه وأننا نضحك كما كانوا يضحكون وأن تقاسيم وجوهنا كتقاسيم هذه الوجوه .. وأن كل شىء كما هو . وليس يميزنا إلا شىء واحد هو الذى يؤخرنا ويشقينا ، وهو هو الذى يعذبنا ويذلنا .. ذلك الشىء هو الجهل .. الجهل ببلادنا . الجهل بتاريخنا . الجهل بأنفسنا . الجهل بقدرتنا .

بين صخـور الكـرنك

وجاء دور الكرنك فاقترحوا علينا أن نزوره فى ضوء القمر أى فى المساء المتأخر . وقد فعلنا .. ولكن زيارة المعبد فى المساء لابد لها من تصريح خاص فالخفراء يغلقون الأبواب ويتهيأون للنوم وإذن فقد كان لا مناص من الانتظار ، والانتظار الطويل . حتى يرد لنا التصريح بالزيارة فجلسنا أمام هذه البوابة الشامخة والتى تزرى بأقواس النصر التى رأيتها فيما بعد فى باريس وروما ولندن ولكنى ساعتئذ لم أكن أقارن ولم أكن أعرف ولذلك فقد كنت مبهورا إزاء هذا الجلال وهذا الشموخ الذى يملأ النفس إحساسا بالعظمة والقوة .. قوة هؤلاء الذين رفعوا هذه الأحجار فشيدوا هذه الجدران المتسامية نحو السحاب . وأقاموا هذه البوابة الضخمة الرائعة .

قلت لك إنهم ذهبوا لاستحضار التصريح فجلسنا فيما يسمونه طريق الكباش واحتطنا بهذه الحيوانات التى أودعوها العقل والقوة .. وكان كل مايحيط بنا يبعث السحر فى النفوس .. فالقمر والسكون وهذه الجدران .. بل هذا المكان الذى وقفت فى ظله يوما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الأيام عشرات الألوف من الناس تلتمس البركة وتدعو الله ... هذا المكان الذى شاهد جيوش مصر الظافرة تروح وهى ممتلئة بالقوة والحماسة وتعود وهى تهزج أهازيج النصر .. والذى شاهد ملوكا تجيء من آخر الدنيا مصفدة بالأغلال لتقدم خضوعها للإمبراطور المصرى .. وأى كنوز تلك التى اجتازت عتبة هذه الأبواب يشع منها بريق الذهب فيملأ هذه الأرجاء ثروة وغنى .. هذه هى البقعة التى وقفنا فيها حتى يجيء التصريح بالدخول فإذا بأحاسيس قوية تغمر نفسى ، وإذا بى أنطلق فى ترتيل أناشيد رواية (مجد رمسيس) تلك التى ألفها الأستاذ محمود مراد سنة ١٩٢٣ . فصوز بها مجد مصر الغابر . وأودعها كل أمل المصريين فى مستقبل زاهر ، فأخذت أهتف من الأعماق يصاحبنى بعض الرفاق الذين يحفظون هذه الأناشيد :

«سودى على رغم الزمن يـامصر يـانعم الوطـن»
«دوسوا العدا يوم الردى لبوا الندا ، كونوا فدا»

وتملكتنى الحماسة فأخذت أنتقل من نشيد إلى نشيد .. ثم رأينا أن نعيد تمثيل الرواية لحنا لحنا وكلمة كلمة .. ثلاث ساعات قضيناها أمام أبواب الكرنك نرتل أناشيد المجد والفخار .. ولعل هذه الأناشيد وهذه الهتافات قد أعادت الحياة إلى هذه التماثيل الجاثمة طوال طريق الكباش ولاشك أن هؤلاء الأطفال الذين وقفوا يرتلون أهازيجهم قد أعادوا إليها بعض ذكريات الماضى السعيد عندما كانت أصوات الألوف ترتفع بالغناء تمجيدا لله ولفرعون . وتنتظر التصريح لها بالدخول . وكما كانوا يصرحون لهم بالدخول ، كذلك جاءنا التصريح ففتحوا لنا الأبواب .. واجتزنا عتباتها .. وقد كان دمى يجرى حارا فى عروقى إثر هذه الأناشيد وكان قلبى يخفق لاجتيازى هذا الأثر العتيد والذى طالما حدثونى عنه .. وكنت أريد أن ألتهم كل مايحيط بى .. وأن أحمله معى وأن أخبئه فى طيات نفسى .. اجتزنا هذه الدهاليز التى تصادف الإنسان أول ماتصادفه فوقفت وزملائى نعجب لهذه القدرة الخارقة التى رفعت هذه الجدران وسوت هذه الأعمدة التى تناطح السحاب .. وقفنا بجانب هذه الأعمدة فإذا بالمكان يبلعنا ولا نكاد نشعر بوجودنا .. وساءلت نفسى هل يوجد فى الدنيا بأسرها أضخم من هذه الأعمدة .. وهل وجد على سطح الأرض صناع حاكوا قدماء المصريين؟ ولم نكد نتمالك روعنا حتى فاجأنا ماهو أضخم .. فاجأنا دهليز الاثنى عشر عمودا والذى يزرى بكل مارأينا وبكل مايمكن أن نراه فى المستقبل .. الله أكبر تجلت قدرته وتقدست أسماؤه ...هل يمكن أن أصف لك ماذا رأيت ؟ هل يستطيع الفنان مهما أوتى من حذق أن ينقل لك الجمال والعظمة ؟ فما بالك ولست فنانا .. ولست أديبا .. ولست من حاذق الكتابة .. ماذا أقول عن هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأعمدة التى يخيل للإنسان أن لا نهاية لها .. ولا حد لجمالها وعظمتها .. ولكنى أحدثك عما كان يدور فى نفسى .. وإنى لأتصور نفسى كما كنت ليلتئذ .. لقد كنت معقود اللسان جاحظ العينين .. بينما كان زملائى يعلقون ويظهرون إكبارهم ودهشتهم وكنت لا أستطيع أن أحير جوابا أو أنبس ببنت شفة ولقد أحسست بقلبى يدق دقا عنيفا وبرأسى تتصاعد إليه أبخرة غريبة .. وكان ذلك كله يتزايد ويتضاعف كلما انتقلنا من مكان إلى آخر ومن حجرة إلى حجرة .. وفجأة إذا بى أرى نفسى فوق صخرة من هذه الصخور المبعثرة هنا وهناك ووقفت خطيبا أخطب الزملاء فيما يجب أن نقول ومايجب أن نعمل .. هذه العظمة التى تحيط بكم ليست غريبة عنكم .. هؤلاء الذين شادوا كل ذلك قد أورثوكم عزمهم وقوتهم .. ومصر التى حملت لواء الإنسانية فى يوم من الأيام يجب أن تبعث من جديد كما تعيد سيرتها الأولى .. وأخيرا يجب أن ننفض عنا غبار الخمول والكسل .. يجب أن نملأ أنفسنا إيمانا وعزما .. يجب أن نتدرع بالشجاعة والقوة .. يجب أن نعمل وأن نعمل حتى نبعث مصر بكل قوتها . بكل جلالها . وبكل عظمتها .

ولقد صفقوا ... أما أنا فكنت مذهولاً لأنى لأول مرة فى حياتى كنت أخطب وأرتجل .. لأول مرة فى حياتى أستطيع أن أقول بضعة عبارات دون أن أتلعثم أو أتوقف .. لأول مرة فى حياتى عرفت أن أتكلم . كنت مندهشا لهذا الانقلاب .. فإن حياتى السابقة على هذه الزيارة كانت تحول بينى وبين الارتجال أو الخطابة . فقد كنت من هواة التمثيل . وكنت رئيسا لفرقة التمثيل فى المدرسة الخديوية . وكنت شغوفا بالتمثيل مفتونا به . والممثل لايستطيع إلا أن يردد الكلمات التى حفظها من قبل فتتعطل فيه ملكة الارتجال وتقوى فيه ملكة الحفظ .. وكذلك كنت .. ولذلك فقد كانت لى مواقف .. كثيرا ما أخجلتنى .. فقد دعيت مرة من المرات أن أشكر بعض الناس فلم أقل سوى بضع عبارات فى تعثر وخفوت .. وفى مرة أخرى حاولت أن أتكلم فعجزت .. أما هذه الليلة فقد خطبت .. خطبت بقوة خفية .. خطبت بكل قلبى . بكل دمى . بكل صوتى .. ألا فهتافا لنفسى وتهليلاً . فقد بعثت من جديد مخلوقا جديدا .. وعندما كنا نجتاز عتبات المعبد فى سبيلنا إلى الخروج ارتفع صوتى فى حماسة وقوة :

«سودى على رغم الزمن يـامصر يـانعم الوطن»
«دوسوا العدا يوم الردى لبوا الندا كونوا . فدا»

ولكن شتان بين إنشادى هذه المرة وبين إنشادى لها منذ ساعة قبل أن ندخل المكان .. لقد كان إنشادى لها من قبل تمثيلاً وغناء وتسلية .. أما الآن فقد كنت أقولها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى تخرج من أعماق قلبى .. كنت أغنيها وأنا أؤمن بكل حرف من حروفها .. وأنا أرفع ذراعى ورأسى مقسما ومعاهداً .. لقد بعثت .. لقد بعثت ... وهكذا يجب أن يبعث كل شاب فى مصر . لقد خلقت من جديد . وهكذا يجب أن يخلق كل شاب فى مصر .. لقد كنت أنظر إلى أعمدة الكرنك وآثاره . لاعلى اعتبار أنها آثار بل كأنها شىء حى يتكلم . لقد وقفت أمام المسلة المرتفعة هناك ووقفت أمام البركة وأمام مئات التماثيل المبعثرة هنا وهناك .. وقفت كأنما أتلقى الأوامر والتعليمات .. وقد كان كل متر من الأرض .. بل كل شبر . يحدثنى عن القوة والمجد .. وكنت أرى الجيوش المحتشدة التى سارت خلف تحتمس ورمسيس والتى فتحت دنيا ذلك الزمان ... وكنت أسمع أهازيج الانتصار وأتمثل النور الذى كان يسطع من هذا المكان .. وفى كلمة : لقد بعثت . ولقد صرت مخلوقا جديدا ..

وعندما رقد الكل فى خيامهم ظللت ساهرا متوليا الحراسة .. وجلست حول النار أشاهد ألسنتها وهى تتقاتل وتتشاحن ويحرق بعضها بعضا . وكانت فى يدى عصا أخذت أعبث بها فى التراب بينما كان عقلى مشغولاً وروحى هائمة .. وكل شىء فى نفسى يبحث خلف العلاج والحل لهذا اللغز .. ماذا .. ماذا يجب أن نعمل كيما نستعيد كل ماضينا الذهبى . ماذا يجب أن نعمل كيما نعيد الحياة إلى هذه الأطلال .. كيما نعيد الأمل إلى هذه النفوس .. كيما نبرز كل فضائلنا التى غطت عليها الرذائل .. ماذا نفعل وماهو الطريق .. ؟ نظرت إلى السماء أستمد منها الجواب .. ولكنى لم أتلق جوابا وكانت يدى تعبث بالرمال وتخط عليها خطوطا وقد أحسست أننى شرعت فى كتابة شىء .. فأكملت الكتابة وطالعت ماكتبت فإذا بها كلمة واحدة ولم تكن سوى «الإيمان» ..

خـــزان أســـوان

انتقلنا وفقا لبرنامج الرحلة لزيارة مدينة أسوان .. وأسوان مدينة جميلة كالعروس .. فاجأتنا بجوها الساحر ورشاقتها . وقد علمونا أن الذاهب إلى أسوان كالذاهب إلى الجحيم سواء بسواء .. عودونا أن يكون نقل الموظف إلى أسوان نوعا من العقوبة والنفى .. فلا يرسل إليها إلا موظف مغضوب عليه .. حتى لقد تمثلت أسوان فى رءوسنا قطعة من الجحيم . إن لم تكن الجحيم بذاته .. ولذلك فقد كان مفاجئا وكان مسعدا أن نرى كل هذا الجمال وكل هذه الفتنة .. فمياه النيل الزرقاء تنبثق على جانبها الغربى تلال صفراء . ويتوج ذلك كله سماء صافية وشمس ساطعة فى غضون الشتاء . إنها لنعمة وأية نعمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتصل بأسوان ولا يبعد عنها بأكثر من بضعة كيلو مترات الخزان والشلال الذى أسرعنا إليه غداة وصولنا إلى أسوان . وإذا كنت لا تزال تذكر هذه الانفعالات التى طافت بنفسى وإذا كان الكرنك قد نال من نفسى الذى نال .. فقد كان تأثير خزان أسوان هو الحلقة الأخيرة التى طغت على كل حواسى وتفكيرى وقررت مستقبل حياتى نهائيا . وإذا كان الكرنك قد أشعرنى الحاجة إلى الإيمان بعظمتنا كيما يبعث مجد مصر القديم .. فقد منحنى خزان أسوان هذا الإيمان وأشعرنى بأننا عظماء فعلاً .. وكل ما هنالك أننا لا ندرى ذلك فإن قليلاً من المصريين هم الذين جاءوا إلى هذا المكان ووقفوا موقفى هذا وشاهدوا ماذا فعل أحفاد الفراعنة .. وماذا فعل بناة الأهرام والكرنك ومن حولوا مجرى النيل .. فإن خزان أسوان يذكرك بهذه الأمجاد البعيدة ويقربها إلى قلبك وعقلك لأنك تراها من جديد .. ياإلهى ! ما أعظم هذا العمل الجليل ؟! أن ترى مياه النيل محجوزة خلف سد شامخ لا بد لك من نصف ساعة كيما تقطعه سيرا على الأقدام .. أن ترى هذا الحائط الذى يناطح السحاب من صنع الإنسان والمياه تتدفق من بعض عيونه فيصم زئيرها الآذان .. ويملأ هديرها الأجسام ارتعاشا ورعبا خفيا .. وهذا الزبد أشبه شىء بالقطن يغلى فيتناثر منه رذاذ يملأ أجواء الفضاء وتتسلط عليه الشمس فتتحلل أشعتها وتستحيل إلى بنفسجية وحمراء وزرقاء .. ياله من مشهد خالد لا ينساه الإنسان مدى الحياة .. لقد ظل هذا المشهد يساور أحلامى ويملأ على ذكرياتى حتى وقفته ثانية بعد سبع سنوات عند ما شرعت فى القيام برحلتى خلال الوجه القبلى تلك الرحلة التى ستبقى إلى الأبد حدثا هاما فى تاريخ مصر الفتاة .. سبع سنوات كاملة هى التى فصلت بين زيارتى الأولى لخزان أسوان وزيارتى الثانية .. ولست أدرى كم سيمر على من الزمن أيضا حتى أعود من جديد لزيارة خزان أسوان .

لقد وقفت أمام الخزان فى هذه الأيام الأولى وأنا أشاهد المياه المنحدرة من بعض عيونه فى عنف وقوة وقد توارد إلى رأسى كل ما قرأته عن إمكان توليد الكهرباء من هذا الخزان .. وكنت أستعيد ما يقولون فأمتلىء غيظا وكمدا لهذا الإهمال وهذا التهاون فيما يحقق الثروة والمجد لمصر .. يقولون انه يمكن توليد الكهرباء من خزان أسوان فيستطيعون تسيير جميع قطارات السكك الحديدية فى أنحاء مصر ويوفرون بهذا خمسة عشر مليوناً ندفعها سنويا ثمنا للفحم إذا ما ارتفع ثمنه قليلاً .. ويقولون بل ويستطيع أن يمد القرى كلها حتى الإسكندرية بالضوء والحرارة اللازمة للأعمال الصناعية ويقولون إن هذا الخزان كفيل بأن يجعل مصر قطرا صناعيا .. إذن ما الذى يؤخرهم ؟.. ما الذى يقعدهم ؟.. لماذا لا يولدون الكهرباء من خزان أسوان ؟.. لماذا يتركون كل هذه الثروة تتطاير فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهواء ؟.. لماذا يدعون القوة والحياة تنساب إلى البحر ؟.. ثم ينعون علينا أننا شعب فقير.. أننا شعب حقير.. أننا أمة زراعية لا تصلح للصناعة لأن الفحم لا يوجد فى بلادنا.. وهذه الكهرباء.. هذه الكهرباء التى تزرى بالفحم ما بالها ؟ وعلام لا نستغلها ؟ أو ليس خداعا إذن كل ما يقصونه علينا من عجز مصر ؟ أو ليس تمويها وتغفيلا هذا الذى دسوه علينا فى كتبنا وصحفنا وعلمونا إياه فى المدارس والمعاهد وفى كل مكان ، وأعنى به أن مصر لاتصلح للصناعة ؟ ! لأول مرة أحسست بجريمة الإنجليز على هذا الشعب بمقدار ما أفقدوه كل معنوياته ، ودسوا عليه الشك فى قدرته وقدرة بلاده.. لأول مرة أحسست بجناية الاحتلال على هذا البلد وبمقدار ماتعمل إنجلترا على عرقلة هذه الأمة وتطورها إلى الأمام.. لو أنهم تركونا وشأننا لاستخرجنا الكهرباء منذ سنوات وسنوات . وملأنا الدنيا مصانع ومعاهد . ألم تكن مصر منذ نيف ومائة سنة تزخر بالمصانع التى لا تنتج الطرابيش والمنسوجات والزجاج فحسب ، بل والمدافع والذخائر والأساطيل.. ومع ذلك فها نحن بعد مائة عام من هذه النهضة يعلموننا أن مصر لاتصلح للصناعة لأن القوى المحركة لا توجد بها.. لقد عدت من زيارة الشلال ونفسى مليئة بالسخط على الاحتلال والحكومات الضعيفة وعقلى مشغول بالتفكير فيما يمكن أن تكون عليه مصر ، غداعندما تستطيع تحقيق هذا المشروع .

عدت من الخزان.. بل عدنا من الخزان وكيفية عودتنا تحتاج إلى تسجيل.. لأننا عدنا سيرا على الأقدام.. من الشلال حتى أسوان ولم أكن أعرف مقدار المسافة وقتذاك ولكنى عرفتها فيما بعد عند ما عاودت السير فى هذا الطريق مصحوبا برفقائى من مجاهدى مصر الفتاة.. عدنا وكان الطريق وعرا فى أحشاء الصحراء.. وكانت الشمس محرقة والرفقاء صغارا لا عهد لهم بالسير فطلب منى رئيس الرحلة أن أنشد لهم أناشيد رمسيس ومجد رمسيس.. وأن أرتل قبل كل شىء نشيد السلامة.. والذى حفظوه من كثرة التكرار.. ولذا فقد صحت بهم هلموا يارفاق.. واحد.. اثنين .

اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا
أبدا لن تستكينى أبدا إننى أرجو مع اليوم غدا

ولما انتهى النشيد هتفت بغيره.. حتى إذا اقتربنا من المدينة دبت الحماسة إلى عروقنا ونفضنا عن أنفسنا مظاهر التعب والكلال.. ونظمنا صفوفنا على أبواب المدينة.. وسرنا أربعة أربعة وأخذنا نقرع الأرض بأقدامنا وقد رفعنا رؤوسنا إلى السماء وارتفعت أصواتنا من جديد :

اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى هذه الصورة المجيدة دخلنا أسوان منذ سبع سنوات واجتزنا شوارعها الرئيسية فوقف الناس على جانبى الطريق يصفقون .. وفتحت النوافذ وانطلقت منها الزغاريد . وخيل إلينا أننا عائدون من الحرب فاتحين منتصرين . ياللذكرى وياالجلالها ، ما أروعها وما أكثر تأثيرها فى نفسى ! فلقد كانت هذه العناصر التى تألفت منها فيما بعد مصر الفتاة .

كـوم أمبـو

لم نكد نفرغ من زيارة أسوان والشلال ونستعد للعودة إلى القاهرة حتى تلقينا دعوة من أحد رفاقنا فى الرحلة لنقبل ضيافتهم فى كوم أمبو ولنشاهد مزارع القصب ونزور مصانع السكر وطلمبات الرى .. ولقد قبل رئيسنا الدعوة شاكرا ونزلنا فى كوم أمبو فرأينا فيها عجبا وسمعنا ما هو أعجب .. رأينا فيها مصانع السكر الضخمة والتى لا يكاد يتصور الإنسان ضخامتها أو أن يتصور أن فى مصر صناعات بهذه الدقة وهذا الإحكام .. وعلى الرغم من مضى زمن طويل على هذه الزيارة فلا زلت أتمثل هذه الزيارة ، ولا زلت أتمثل هذه الكتلة الضخمة من الآلات والتى ترتفع فوق بعضها فى طبقات مختلفة ليصعد إليها الإنسان بدرجات فوق درجات ، والعمال المصريون وسط ذلك كله يشرفون على أعمالهم فى حذق ومهارة ومثابرة ، ولأول مرة أرى عملية صناعية فيأخذ بلبى تحويل المواد من حالة إلى حالة . فالقصب وهو ينظف ثم يقطع ثم يعصر .. ثم يرشح ثم يركز .. وهكذا .. وهكذا .. عدة عمليات يتتبعها الإنسان فى شوق وشغف حتى يصل إلى نهايتها فيرى السكر وهو يعبأ فى الأكياس ثم يحمل إلى الخارج كيما يشحن إلى القاهرة ليكرر فى مصانع الحوامدية والتى حدثونا عن ضخامتها التى لا حد لها .. ولقد حدثونا عن الأرباح الطائلة التى تغنمها شركة السكر .. وعن رأس المال الضخم الذى أصبحت تمتلكه والذى بدأت به صغيرا .. وهنا لأول مرة أصطدم باستغلال الأجانب للمصريين وأفكر طويلاً فى دلالات ذلك وما ينطوى عليه .. ولكن المشكلة لم تأخذ شكلها الصريح إلا عندما زرنا طلمبات الرى وعرفنا أسرارها .. لقد رأينا أربع أنابيب ضخمة قد ركبت على النيل ، ولا زلت أذكر أن المهندس الذى كان يحاضرنا أخبرنا أن هذه الأنابيب هى أضخم أنابيب من نوعها فى العالم ، وأنها تأخذ ١ على ٢٠ من مياه النيل فى أيام التحاريق ، ولست أعرف مدى دقة هذه المعلومات وصحتها ، ولكنها كانت كافية لإزعاجى ، وخصوصا عندما علمت أن هذه الشركة الأجنبية قد وضعت أيديها على ألوف من الأطيان فى هذه الناحية بثمن تافه لا يزيد عن بضعة قروش للفدان ، وأنها الآن قد تحولت إلى أرض كأجود الأرض ، أى أن شركة كوم أمبو قد أصبحت مستعمرة أجنبية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أرض الدولة ، وحكومة داخل الحكومة ، وأن ألوفا من الفلاحين المصريين يعيشون فى حالة رق لهذه الشركة الأجنبية التى تستنزف كل مجهوداتهم فى نظير ثلاثة أو أربعة قروش لكل عامل .. لقد كانت هذه المعلومات كافية لإشعال نار الثورة فى صدرى . لماذا .. لماذا نعيش فى بلادنا فقراء وخدما وعبيدا للأجانب ؟.. لماذا يجىء هؤلاء الناس إلى مصر بقروش قليلة فيصبحون من أغنى الأغنياء ؟.. لماذا يسخروننا ؟.ولماذا يتحكمون فينا ويملكون علينا كل شىء ، حتى الأرض ؟.. الأرض التى هى ملك لنا والتى نزرعها منذ ألوف السنين يغتصبونها منا .. وفى ظل الاحتلال وفى ظل الامتيازات يعرفون كيف يكبلون أعناقنا فى خدمتهم .. لماذا لا تكون هذه الأراضى ملكا للدولة .. لماذا لا توزع على هؤلاء الفلاحين الفقراء ؟ فى أى قانون وبأى نظام وبأية شريعة يشقى أحفاد الفراعنة والعرب والذين سادوا العالم وعلموا الدنيا ؟.. لماذا يارب يشقون من أجل الأجانب .. ويكدحون من أجل الأجانب ؟.. هل هم فى نهاية الأمر شعب منحط صغير لا يصلح إلا للعبودية ؟.. لا .. لا .. إن نفسى تثور وإن روحى تتمرد على هذا الوضع المقلوب .. ولذلك فلم أكد أُدعَ للكلام فى حفلة أقامها لنا أحمد بك مصطفى مدير الشركة حتى اندفعت أخطب .. كما خطبت على صخور الكرنك .. واندفعت أهاجم الأجانب .. واندفعت أدعو من حولى إلى معرفة حقوقهم والكفاح فى سبيل تحرير بلادنا .. وكان علينا أن نسافر بعد خمس دقائق ولذلك فقد شرع إخوانى يشيرون لى أن أنهى كلامى .. ولكنى نسيت كل شىء .. نسيت القطار ، ونسيت ميعاد السفر ، بل ولم أكن أعرف معنى هذه الإشارات ، حتى اضطروا إلى أن يحملونى حملاً وأن يسرعوا بنا إلى القطار ، والذى نجحنا فى إدراكه فى نهاية الأمر ، ولم يكد يتحرك القطار حتى عدت إلى نفسى وشعرت كأنما أستيقظ من حلم .. ذلك أن الحالة التى كنت فيها كانت أشبه شىء بنوبة المحموم ولم يكن يعنينى فى ذلك كله إلا أننى قد خطبت للمرة الثانية دون أن أتلعثم ودون أن أتردد .. خطبت للمرة الثانية مرتجلاً .. وإذن فقد أصبحت أعرف التحدث إلى الناس .. وأن أتحدث إليهم من أعماق قلبى وأن أنقل لهم كل أفكارى .. لقد كانت هذه بدء صفحة جديدة من صفحات حياتى .

عدت من الرحلة بأفكار جديدة وآمال جديدة ومشاريع جديدة كذلك .. ولقد تطورت حياتى منذ هذه الساعة فى ناحية الكفاح السياسى تطورا سريعا .. ولعل هذا أصدق برهان على فوائد هذه الرحلات وضرورة تعميمها وجعلها جزءا لا يتجزأ من برنامج التعليم بل والتوسع فيها إلى أقصى حد .. فيجب على كل طالب فى المدارس الثانوية أن لا يتم تعليمه حتى يكون قد زار مصر من الأسكندرية حتى أقصى الحدود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجنوبية فى السودان .. وأن يزور أعلامها وآثارها ومصانعها وبلدانها وبهذا ، وبهذا فقط ينشأ جيل جديد يعرف بلاده حق المعرفة ومتى عرفنا بلادنا أحببناها .. ومتى أحببناها فقد امتلأت قلوبنا بالحافز الذى يدفعنا للتضحية واحتمال الحرمان والعذاب ، من أجل حرية من نحب ، وسعادة من نحب . ينشأ الطالب فى مصر ويكبر وهو لا يكاد يعرف من أمر وطنه إلا الجدران الأربعة التى تحيط بمدرسته وبيته وبعض الشوارع التى يجتازها إلى مدرسته وملاهيه فيخيل له أن وطنه ككل الأوطان .. وأن الحياة هى أكل وشرب ومنام .. وربما أزعجته كلمة الوطن والدفاع عن الوطن لأنه يرى الأمر كله ليس إلا خيالاً فى خيال .. أو كما اعتاد كثير من الصبية الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر العظمة والفلسفة أن يقولوا عنه (مواضيع إنشائية) . فشباب مصر يرى الكلام عن الوطن موضوعا إنشائيا وليس ذلك إلا إغراقا فى الجهل لا أكثر ولا أقل .. ولكن عندما يركب الطالب ويذرع أرض وطنه من الشمال إلى الجنوب .. وتمر به الساعات وهو فى القطار والمناظر تتوالى تحت أنظاره ما بين سهل وجبل ووديان ومياه وهذه كلها ليست إلا بلاده التى ينسب إليها .. عندما يسافر الساعات الطويلة ثم يدخل مدينة أو قرية فإذا بهم يتحدثون إليه بلغته وإذا بهم يرحبون به ويتبادلون وإياه أطراف الحديث فإذا ما يشغل باله يشغل بالهم وإذا بالذى يفرحه قد أفرحهم .. وإذا بالجميع وكأنهم عائلة واحدة واخوان متحابون .. هنا .. وهنا فقط سيدرك الشاب معنى الوطن الواحد والشعب الواحد ومعنى تضامن الأفراد .. وعندما يشاهد الشاب آثار بلاده التى تحدثه عن مجد أسلافه وعظمتهم سوف يشعر بالفخار والعزة .. وعندما يدرك موارد الثروة فى وطنه ويزور مصانعها الكبيرة فى كل مديرية وفى كل بلد فسيقف على مقدار الحيوية التى تسرى فى شرايين بلاده وسيمتلىء ثقة واعتزازا بنفسه .. ووالله إن هذه هى الدراسة وهذه هى وسيلة إذكاء الوطنية والروح المعنوية لمن يريدون إذكاءها .. فإذا كانت هذه الرحلات فى مجاميع تعيش فى نظام شبه عسكرى فإن أثرها سيكون مزدوجا من حيث التأثير على الأخلاق وتكميلها .. فالحياة وسط الجماعة تعلم التعاون والإخاء والصراحة .. والعيش فى الخلاء وفى الخيام والسير على الأقدام والاستيقاظ فى وقت مبكر والنوم فى وقت مبكر كذلك .. وتحية العلم فى الصباح وفى المساء ومزاولة الألعاب الرياضية كل هذه من شأنها أن تنضج الرجولة فى نفوس الشباب وتفجر القوة الكامنة فى أعطافهم وهى أخيراً توحد بين المشتركين فيها وتجعلهم أسرة واحدة .. هذه هى الرحلات وهذا أثرها فى تكوين الجيل الجديد وبحسبك أن تعلم أن مصر الفتاة بأسرها مدينة لهذه الرحلة التى قمت بها فى عام ١٩٢٨ .. فقد علمتنى كيف أحب وطنى وكيف أمتلىء ايمانا بعظمته . علمتنى أسرار القوة الكامنة فى هذا الشعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسبيل إلى بعثها .. وأخيرا علمتنى أثر الأناشيد وحياة الجماعة والنظام فى نفوس الشباب .. فكان ذلك كله هو أسلحتى التى استخدمتها فيما بعد كيما أقوم بهذا العمل الذى أخذت على نفسى تحقيقه .

من تاريخ مصر

أحسست برغبة ملحة فى أن أطالع تاريخ مصر فى ضوء هذا التحول الجديد فعدت إلى كتبى الدراسية التى فيها حديث عن مصر وأخذت أربط الحوادث المختلفة .. وأستعرض الصفحات المتفرقة فى عديد من الكتب .. فإذا بى أرى ظواهر عجيبة لم تلفت نظرى قبل ذلك وهى مع هذا ذات دلالات كبيرة .. فقد كنت أعتقد كما يعتقد كل طالب وكل مصرى على العموم .. أن الحضارة فى مصر ، أو بمعنى آخر العصر الذهبى فى مصر ، كان قاصرا على عهد الفراعنة وأنه منذ ذلك التاريخ قضى على استقلال مصر نهائيا ودخلت فى دور المستعمرات .. وأن هذا العهد الذهبى لم يعد إلى الوجود بين ضفاف النيل ثانية .. وسرعان ما وقفت على خطئى وخطأ كل مصرى فى هذا التصور .. فقد عاد العصر الذهبى مرتين وثلاثة وأربعة .. بل إن مصر فى أغلب عصورها كانت هى دائما كما كانت فى عهد الفراعنة موطن العلوم والمعارف والأديان .. فإن عصر الفراعنة لم يكد ينتهى على الصورة التى نعرفها ، ولم تكد تمضى بضع سنوات على فتح الإسكندر المقدونى لمصر ، حتى أخذت مصر تعود من جديد لتحتل الصف الأول بين دول العالم . وليس ينقص من عظمة هذا التطور أن كان على رأس مصر فى ذلك الوقت دولة البطالسة والذين هم من أتباع الإسكندر أى من عنصر الفاتحين .. فالتاريخ يحدثنا أن هؤلاء البطالسة قد اندمجوا فى الجنسية المصرية اندماجا عجيبا .. ودانوا بدين المصريين وارتدوا أزياءهم وتسموا بأسمائهم .. وحكموا فى عدل وقوة لخير المصريين ومجد المصريين .. ولم يترددوا فى جعل كلمة مصر هى العليا وما عداها فى الدرجة الثانية من الأهمية حتى بلادهم الأصلية .. وإذن فقد أصبحوا ملوكا مصريين بالدم واللحم والتفكير .. يحكمون بالمصريين ولأجل المصريين .. وسرعان ـ كما قدمت ـ ما تبوأت مصر المركز الأول بين دول العالم . فإذا بأسطولها يسيطر على البحر الأبيض ، وأمبراطوريتها تعود من جديد فتمتد شرقا وغربا وجنوبا .. وإذا بجامعة عين شمس القديمة فى هليوبوليس التى أسست فى إبان مجد الفراعنة ، والتى جاء إليها أرسطو وأفلاطون وصولون وغيرهم من فلاسفة اليونان كيما يتعلمون فيها الحكمة والفنون .. إذا بجامعة عين شمس هذه تفتح أبوابها من جديد فى جامعة الاسكندرية التى طبقت شهرتها الخافقين وجاء إليها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلماء والفلاسفة من جديد يتلقون العلم والحكمة والفنون .. ومضت عشرات الأجيال ومصر تتبوأ هذه المكانة العليا بين دول الأرض .. وعندما جاء المسيح بعد ذلك وأصبح النزاع الروحى هو ما يشغل العالم وسكان العالم رفعت مصر لواء المسيحية على الرغم من اضطهاد الرومان وتعذيبهم . ولا زالت مصر حتى اليوم تحتفل بذكرى الشهداء الذين سقطوا تحت سيوف الرومان تمسكاً بالمسيحية ولولا كلمة جاءت فى الإنجيل على لسان المسيح وهى «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» ، لولا أن المسيح عليه السلام لم يشأ أن يقود الأمم والجماعات التى تدين بمبادئه إلى العصيان والثورة ضد الرومان بل على العكس دعا للتسامح واحتمال العذاب وترك المادة والتعلق بالروح ، لولا أن هذه كانت فلسفة المسيح والمسيحية ، لما صبرت مصر على حكم الرومان هذا العهد الطويل ، ولثارت عليه وقهرته واسترجعت استقلالها . ولكنها تأثرت بالديانة المسيحية التى حالت بينها وبين هذا النوع من الكفاح كما قدمت لك ، وهذا هو السر فى تبعية مصر للرومان طوال هذه العصور التى يذكرها التاريخ .. ولما كان الصراع روحيا فقد انتصرت فيه مصر على طول الخط وقاومت اضطهاد الرومان حتى انتصرت المسيحية واضطرت روما فى نهاية الأمر إلى الاعتراف بها .. وإذن فمصر حتى فى هذه اللحظات التى حكمها فيها الرومان كانت تلعب دورا خطيرا فى تاريخ البشرية ، وأن ما جعلها ترضى بالمساس بسيادتها ليس إلا شدة إمعانها فى التمسك بدينها والزهد فى مادياتها .. ولذلك لم تكد مصر تنفض عنها الدين المسيحى بدخول الإسلام إليها عن طريق العرب .. والإسلام فيه من تعاليم القوة ما فيه ، حتى قامت مصر تلعب الدور الأول فى تاريخ الإسلام وتتصرف فى أقداره وتذيع رسالته ولما يمض على وفاة سيدنا محمد ﷺ بضع سنوات وعشر .

والتاريخ يحدثنا أن الفتنة التى ثارت على سيدنا عثمان كان قوامها مصر .. وأن المتظاهرين الذين أحاطوا بمسكن عثمان رضى الله عنه واتهموا بقتله كانوا قادمين من مصر .. وبغض النظر عن قيمة هذا العمل واستنكارنا له ، فإن الذى يهمنى هو أنه يدل على الدور الخطير الذى بدأت مصر تلعبه فى تاريخ الإسلام وأنها لم تكن الكم المهمل الذى لا رأى له أو فكرة .. بل كانت الدولة القوية صاحبة الكلمة العليا فى سياسة الإسلام .. وأرجو أن تعلم إذا كنت ممن لا يعلمون أن سيدنا عليا (رضى الله عنه) قد بويع فى مصر وأن المصريين هم الذين ارتضوه إماما للمسلمين ، ولم تكد الخلافة القرشية يذهب ريحها ويتنكر المسلمون للخلفاء ، ويغيرون من نظرتهم التى اعتادوا أن ينظروا إليهم بها ، حتى رأينا مصر فى طليعة الدول التى استقلت من جديد بشئونها ودولتها . فإذا بمصر منذ أحمد بن طولون وهى دولة مستقلة لها سيادتها وشخصيتها ، وسرعان ما صارت مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجيدة فى عهد الفاطميين .. بل إذا بها على رأس دول العالم طرا فى العصور الوسطى - وإذا بالإمبراطورية المصرية تعود إلى الامتداد شرقا وغربا وجنوبا ، وتبسط نفوذها على الإمبراطورية الإسلامية بأسرها ، وإذا بالعلوم والفنون والحضارة تصبغ كل شىء فى مصر ، وتؤثر على العالم بأسره ، وإذا بجامعة عين شمس التى صارت يوما ما ، جامعة الاسكندرية تظهر من جديد للمرة الثالثة فى ثوب جامعة الأزهر .. مشعل النور والهدى فى العصور الوسطى .. وبينما كانت أوربا تعيش فى دياجير الظلمات .. وبينما كان العالم الإسلامى تأكله الفتن والمحن والويلات .. كانت الجامعة الأزهرية موئل الوافدين من أطراف العالم الإسلامى لتلقى رسالة الإسلام .. ولم يكن الأزهر جامعة الدين فحسب .. بل كان الجامعة التى حفظت علوم العرب بأسرها ، فدرسوا بين جدرانه الطب والكيمياء وعلوم الهيئة والفلك ..

ورأيت بعد ذلك مصر وهى تقف فى وجه أوربا بأسرها فى الحروب الصليبية وتهزمها .. وتكسرها شر كسرة سواء فى ميادين الشام ، أو فى الميادين المصرية بالذات ، عندما فكروا فى الإغارة على مصر . وإذا كانت أوربا قد نهضت من ظلمات العصور الوسطى ، فقد كان الفضل فى ذلك راجعا إلى هذه الأيام التى احتكت فيها بمصر والحضارة العربية فاقتبست منا العلوم والفنون والمعارف .. وهكذا بدا لى تاريخ مصر سلسلة متصلة من الفتوحات والانتصارات الإنسانية بصفة خاصة ، أعنى فى عالم المدنية والحضارة .. ورأيت كيف استطاعت مصر أن تفنى جميع غزاتها وأن تنتصر عليهم فى نهاية الأمر ، بعد أن تحولهم إلى مصريين فى الدم واللحم والتفكير .. وكيف دالت دول العالم وتألفت امبراطوريات وسقطت امبراطوريات وبقيت مصر .. هى .. هى دائما قلب العالم النابض ومصدر علومه وثقافته فى أكثر الأحيان .. ولا عبرة بتغلب بعض المغيرين من حين لآخر عليها .. إذ لا يرجع ذلك إلا لأن مصر قد استيقظت فى فجر التاريخ قبل تكوين هذه الدول بأسرها ، ولم يكن معقولاً ولا طبيعيا فى شىء أن تبقى طوال أربعة آلاف سنة سيدة العالم وزعيمته .. فالشعوب كالانسان عرضة لتقلبات الصحة والمرض .. وكما يصاب الجسم بضعف من حين لآخر بتعطيل فى بعض أجهزته فكذلك الأمم .. وهكذا كانت مصر عرضة بين حين وآخر لهذه النوبات التى يضعف فيها جسدها ، فتكون محلاً عندئذ لسطوة مغير .. ولكنها كانت تبادر سريعا باسترداد عافيتها ، وتقوم بدورها الذى عرضتهُ عليك .. ومن عجب أن هذه الأمم التى أغارت على مصر ، لم تكن مصر هى أولى ضحاياها ، بل كانت تجىء دائما فى النهاية .. فعندما فتح الإسكندر مصر لم تكن مصر أول ما فتح ، ولكنه جاء إليها بعد أن فرغ من أوروبا .. وإذا كان الرومان قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دخلوا مصر فقد دخلوا إليها بعد أن حكموا البحر الأبيض بأسره واحتلوا إنجلترا ذاتها .. وإذا كان العرب قد دخلوا مصر غزاة بعد ذلك ، فقد فتحوا الدنيا بأسرها .. وهكذا .. أى أن مصر لم تكن كما يحاول المستعمرون أن يصوروها لنا ذليلة حقيرة .. بل على العكس تغلبت مصر على بعض هذه الدول الجديدة التى مدت ظلها على العالم .. ولقد جاء دور مصر أكثر من أربع أو خمس مرات فمدت ظلها على إمبراطورية واسعة الأرجاء .. مع أن هذا الأمر لم يتكرر فى حياة غيرها من الأمم .

على أن الذى أثر فى نفسى أكثر من غيره من تاريخ مصر ، هو تاريخها أيام محمد على ، الذى كان مقررا علينا دراسته فى هذا العام الدراسى .. فقد عدت من رحلتى وكان على أن أستذكر تاريخ مصر فى هذه الأيام .. ولقد دفعنى شغفى إلى حد أن لا أقنع بهذا المختصر الذى كان يقدم لنا عن تاريخ مصر فى عهد محمد على .. فرجعت إلى كثير من المطولات .. ورأيت فى ذلك كله العجب العجاب .. رأيت كيف وثبت مصر وثبة سريعة فى مستهل القرن التاسع عشر ، ولم يزد عدد سكانها عن ثلاثة ملايين . ومع ذلك فقد أصبحت أمبراطورية ضخمة ذات جيش يهزم الأتراك (أسياد الحروب فى أوروبا) وذات أسطول يحول البحر الأحمر إلى بحيرة مصرية ، يسود شرق البحر الأبيض المتوسط .. فاستطاعت مصر أن تخيف أوربا مجتمعة فتتحالف عليها ، كيما تحطم الأسطول المصرى بخدعة دنيئة ، فى موقعة (نفارين) وكيف استطاعت مصر بعد ذلك أن تجدد بناء هذا الأسطول بأيد مصرية ، وفى موانىء مصرية .. ولقد كانت أياما عجيبة بهرت فيها مصر العالم .. فقد بدأت مصر نهضتها فى وقت لم تكن اليابان قد نزلت إلى ميدان الجهاد بعد .. ولم تكن الولايات المتحدة قد وحدت صفوفها بعد .. ولم تكن ألمانيا الحديثة وإيطاليا الحديثة ، قد خرجتا إلى الوجود كأمم مستقلة موحدة .. فى تلك الأيام لعبت مصر هذا الدور الخطير ولولا انجلترا .. لولا انجلترا عدو مصر اللدود لكنا اليوم نعيش فى أضخم امبراطورية .. ولكن انجلترا نجحت فى تأليف كتلة من الدول الأوربية ضد مصر ، فإذا بنا فى معاهدة سنة ١٨٤٠ ، نجرد من ثمار انتصارنا الذى حصلنا عليه بدمائنا وأموالنا وإيماننا .. وإذا بمصر المنتصرة فى نصيبين .. مصر ذات الجيوش والأساطيل والمصانع والمعاهد .. تقف غداة انتصارها كيما تجرد من كل شىء حتى الشرف .. شرف الاستقلال التام ، وليس ذلك إلا بعمل انجلترا التى أرادت أن تثأر لنفسها من مصر التى طردت جيوشها فى سنة ١٨٠٧ وقذفت بها إلى البحر . كما أرادت أن تمهد لابتلاع مصر فى المستقبل ولم يكن ممكنا أن تتغلب مصر على أوروبا مجتمعة .

لقد كانت هذه الحوادث بعيدة الغور فى نفسى .. ولقد ملأتنى بالمرارة والغضب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجعلتنى أشعر بمقدار الظلم الذى نعانيه .. فنحن أسياد العالم قديما .. نحن الذين علمنا الإنسانية العلوم والنور .. نحن الذين حملنا مشعل الحضارة . نقف فى مؤخرة الأمم بفعل انجلترا التى حطمت امبراطوريتنا التى شيدناها وسلبت استقلالنا الذى ظفرنا به بجهادنا ثم نلقن بعد ذلك فى المدارس والمعاهد وفى كل مكان أننا أمة صغيرة ضعيفة ذليلة فقيرة .. لا .. لا .. إننى أثور على ذلك وأتمرد عليه . ويجب أن تزول هذه الغشاوة عن أعين المصريين .. يجب أن يعرفوا أنفسهم على حقيقتها .. يجب أن نقضى على الجهل بتاريخنا . ويجب أن تعاد كتابة تاريخ مصر وأن تطهر الأذهان من هذه المفتريات المجرمة التى حشرها الاستعمار فى رؤوسنا حشرا .

ولذلك فقد جعلت أول خطوة فى برنامجى أن أذيع الحقائق عن تاريخ مصر . وأن أظهر صفحات مصر المجيدة . وعلى هذا فلم أكد أنتهى من إلمامى بتاريخ مصر فى أطواره المتعددة . حتى أعددت محاضرة فى هذا الموضوع . وطلبت من لبيب بك الكردانى ناظر المدرسة أن يسمح لى بإلقائها فى مسرح المدرسة فسمح بذلك . فدعوت لحضورها المدرسين والطلاب .. ولأول مرة وقفت أحاضر فى تاريخ مصر كما أفهمه . فامتلأ المستمعون بالحماسة والنشوة ، ونجحت المحاضرة نجاحا عظيما . وسرعان ما بدأت أعرف مقدار ما تفعله هذه الحقائق عن تاريخ مصر من الأثر فى نفوس الشباب !. فزاد إيمانى بهذا العلاج !. ودأبت على استعماله بعد ذلك فى كل خطبى وفى كل أحاديثى .. وسوف يرى القارىء فى مجموعة الخطب والمقالات التى ستأتى فى هذا الكتاب ، والتى ألقيتها فى إبان اثنتى عشرة سنة ، إنه لم تخل خطبة واحدة من الإشارة إلى هذا التاريخ المجيد .. ذلك لأننى مؤمن أن نصف قضيتنا يحل متى عرف كل مصرى قدر نفسه ، وآمن بقدرته على العمل ..

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التمهيد لمصر الفتاة

٢

لم أكد أفرغ من تحليل عناصر القوة فى تاريخ مصر ، حتى اتجهت إلى تحليل عناصر الضعف فى مصرنا الحاضرة .. ولقد راعنى أول ما راعنى ، ما سبقت إشارتى إليه ، وأعنى به الجهل فقد كان الجهل يجابهنى دائما أبدا كلما حاولت أن أتبين السر فى مسألة من المسائل .. فهناك تدهور دينى مصدره الجهل بتعاليم الإسلام الصحيحة .. وهناك تدهور وطنى مصدره الجهل بتاريخ الوطن وقيمته.. وهناك جهل بحقوق الناس بعضهم لبعض ، فالجهل فى جميع مظاهره هو أول ما يروع الإنسان الذى يحاول أن يدرس مصر الحاضرة ! . ولست أعنى بالجهل قلة انتشار التعليم والمدارس .. فليس هناك ما هو جدير بالزراية والاحتقار من هذه المدارس الثانوية والابتدائية التى تفتحها الحكومة ! .. وإن أردت أن تعرف من هم أجهل الطبقات فى مصر فصدقنى أنهم الذين ينعتون أنفسهم بالمتعلمين .. ممن دخلوا المدرسة فى مصر وهم أجهل الجهال ، وخرجوا منها بالقشور .. بعد أن فقدوا فيها غريزتهم السليمة فى فهم الحقائق ، واستعاضوا عنها بذاكرة مشوهة محشوة ببعض معلومات متناثرة لا يربطها منطق ولا توحى بها منفعة .. خذ مثلا هذا العامى البسيط أو الفلاح الساذج واسأله عن مصر ومكانتها فإنه سرعان ما يجيبك بأن (مصر هى أم الدنيا) ولقد رأيت كيف أن هذا الجواب صحيح وأنه ثمرة الإحساس بعظمة مصر وجغرافيتها .. ثم سل المتعلم بعد ذلك عن مصر فسيقول لك إنها بلاد لا تصلح لشىء فرض الله عليها العبودية والذل إلى الأبد ، وأننا شعب (زلط)وأننا لا نفلح فى شىء ! . وهكذا ..

تعال إلى العامى أو الفلاح وناقشه فى إحساسه بشخصيته بالقياس إلى الأجنبى فستستشعر منه اعتزازا بنفسه بالرغم من كل شىء ، وتدرك منه حاسة النفور من كل ما هو أجنبى ، ومن كل ما هو انجليزى بصفة خاصة ، وهذه غريزة متأصلة فى نفسه .. أما هذا الذى تلقى التعليم فى المدارس ، فسوف ترى منه احتراما لكل ما هو أجنبى ، وسوف ترى منه احتقارا لنفسه وجنسه واكبارا للأجنبى وأرومته . فالأمة المصرية فى مجموعها سليمة من هذه الناحية . إذا حدثتك عن الجهل ، فلست أعنى به قلة المدارس والتعليم الإلزامى فإن إيمانى بهذا التعليم قليل . وإنما أعنى بالجهل : الجهل الذى تشترك فيه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجماعة .. فلقد ساد العرب الدنيا بإيمان وأخلاق ! . وكذلك الرومان وكذلك الإنجليز وعندما انتشر التعليم فى جميع هذه البلاد مصطحبا معه الترف والإسراف اضمحلت هذه البلاد وانحدرت نحو الهاوية .. فالعلم الذى أعنيه هو العلم الجماعى لا العلم الفردى .. بمعنى أن يكون الشعب فى مجموعه يعرف لنفسه حقوقا مقررة لا يمكن المساس بها .. وبمعنى أن يكون للشعب مثل أعلى يسعى للحصول عليه .. وبمعنى أن يكون الشعب بأسره على بينة من بعض الحقائق فى تاريخ بلاده .. وفى طبيعة بلاده .. وبمعنى أن يكون الشعب على بينة من روح دينه وقواعده .. فالدين الإسلامى الذى بنى على العزة والقوة والجهاد ، يعرف فى مصر على أنه استسلام وركود وجهل وهكذا ! . فأعدى أعدائنا فى مصر الجهل .. الجهل بديننا .. الجهل بوطننا الجهل بأنفسنا .. الجهل بحقوقنا .. وإذن فلا مناص من تعليم الشعب هذه التعاليم ولست أشك لحظة فى مقدار الخطوة التى نخطوها إلى الأمام بإحلال العلم محل الجهل السابق الذكر .. ويروعنا بعد ذلك أكثر ما يروعنا ، فقر الأغلبية الساحقة من المصريين ! . فأكثر من ثلاثة عشر مليونا يعيشون عيشة الضنك وهم جمهرة الفلاحين ، مع أنهم يفلحون الأرض وينتجون الذهب .. ومع أن النيل كان دائما سخيا وفيا لأبنائه وأحفاده . ولقد أنعمت النظر طويلا فى ذلك فعرفت السر فى كل هذا الفقر ، فهو ناجم عن سوء توزيع الثروة ، فبينما يحتكر الأجانب جميع رءوس الأموال ، وكل تجارة مصر الخارجية . ويداينون مصر هذا الدين المشئوم ، الذى هو أقرب إلى الديون غير المشروعة ، التى يجب على الدولة أن تلغيها بمجرد استيقاظها ! والأراضى المصرية مرهونة للأجانب ! .. وفى ظل الامتيازات يضمن الأجانب لأنفسهم التفوق المالى والاجتماعى .. وهذا ما جعل المصريين فى هذا الفقر المدقع إذا ما قيسوا إلى الأجانب .. وبجانب ذلك تضع الحكومة يدها على جانب كبير جدا من الأراضى الزراعية قد يزيد على مليون فدان وهى تستغله أسوأ استغلال ، بينما لو وزعت هذه الأراضى على صغار المزارعين لعادت على الدولة بفوائد جزيلة ، ولأغنت الكثيرين وأنقذتهم من هذا الفقر المميت .

وهناك طائفة من الموظفين ، تستولى على ما يقارب نصف الميزانية . عشرات الألوف من صغار الموظفين يتضورون جوعا بينما مئات من كبارهم يأكلون الذهب .. فالثروة فى مصر موزعة توزيعا سيئا .. والأجانب يستولون على كل غنائمها ، والفلاحون فقراء .. فحياتنا الاقتصادية إذن مهشمة كل التهشيم ! . ولا مناص من بذل جهد كبير لإصلاحها .. بل ولا مناص من البدء بإصلاحها .

وفوق ذلك كله إفلاس روحى وخلقى ، فأحكام الدين قد نبذت ظهريا فى جميع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنحاء مصر ! . خاصة فى المدن والعواصم ! . وفى صفوف المتعلمين والحكام .. فانتشرت دور الخمر واللهو الحرام وجميع صنوف الموبقات ! وضعف الوازع الدينى ، وكثر التظاهر بالإلحاد ، والكتابة فى الهجوم على الدين ، حتى لقد أصبح ذلك طريقة للشهرة والتظاهر بالعلم .. وأصبح التقاطع والتنابذ والحقد والحسد من مظاهر الحياة المصرية .. وقد جر التدهور الدينى تدهورا خلقيا بطبيعة الحال ، فاذا بالفوضى الخلقية تعم كل مكان .. فالمحسوبية وملء الوظائف بالأشياع السياسيين والمناصرين ، وإغداق المرتبات الضخمة عليهم ، وإهمال الأكفاء وانتشار الرشوة والاتجار بالأعراض والتملق للرؤساء والعبث بالقوانين والاندفاع مع الشهوات ، أصبح طابع الأداة الحكومية وموظفى الحكومة وحكامها ! . ثم انتقل منها حتى عم جميع الطبقات خاصة ذات الأثر فى حياة مصر السياسية .

وهناك فى نهاية الأمر الاحتلال الإنجليزى ! . وإصبع الإنجليزى فى السياسة المصرية هى التى أضعفت كل مقاومة ، وحطمت وحدة الأمة ، وخلقت العديد من الأحزاب ، ولوحت بالمناصب والرتب ، لكل ما يكون فى خدمتها .

وهكذا حيثما قلبت الطرف فى أى مكان لا ترى إلا آثار التدمير الخلقى والسياسى والاقتصادى والثقافى ، وهذا هو ما جعل القلوب تمتلىء يأسا وشكا فى إمكان النجاح والوقوف على الأقدام بين دول العالم .. ولقد نسى كل مصرى حوادث الأمس القريب ، وأعنى بها حوادث ثورة ١٩١٩ وحسبوها فلتة من فلتات الطبيعة لا أمل فى العودة لمثلها .. والواقع أن حاضر مصر يبدو غريبا بالنسبة لماضيها .. بل ويبدو منقطع الصلة لأول وهلة ، ولكن إيمانى بدأ يتغلب على كل هذه المظاهر ، وبدأت تظهر أمام عينى أنها ليست بعيدة الغور ، وأن الحيوية المصرية لا تزال سليمة فى انتظار من يحركها ويبعثها ، وأن شيئا من الصبر والثبات والإرادة كفيل بتحقيق كل ما نصبو اليه ! .

ولقد كان مقررا علينا فى ذلك العام لامتحان البكالوريا أن نعيد دراسة تاريخ القرن التاسع عشر ، مضافا إلى تاريخ محمد على .. وتاريخ القرن التاسع عشر ملىء بأخبار النهضات الحديثة وأحاديث الثورات والكفاح ، ففى إيطاليا ، مثل ما فى ألمانيا ، مثل ما فى بولندا ، مثل ما فى أيرلندا ، استمر الكفاح عنيفا حتى كُلِّل بالنجاح ! .. ولم تكن دولة من هذه الدول التى ظفرت باستقلالها ووحدتها بأسعد حالا من مصر ! فقد كانت فريسة قوات ضخمة وظروف سيئة ! .. ومع ذلك فإن الكفاح المتواصل والإيمان العميق قد أدى دائما إلى النجاح ! . ولقد أثر فى نفسى بصفة خاصة كفاح إيطاليا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويظهر أن هذا الشعب يقترب إلى حد ما من الشعب المصرى ، قد أعجبتنى هذه العبارات التى تفيض إيمانا وحماسة ، والتى ملأ بها مازينى صدور الشباب الإيطالى ، وهزت نفسى هزا ، حملات جهاده من أجل إيطاليا الفتاة ، الذى كان من مميزاته تحقيق الوحدة الإيطالية .

وليست مصر بأقل من هذه الدول .. وليس الشعب المصرى بأقل من هذه الشعوب . واذن فإلى العمل .. وإلى العمل فى صبر وثبات وإيمان .

هكذا بدأ العزم يملأ نفسى ، وبدأت خطوط الكفاح الأساسية ترتسم أمام عينى ، وبقيت الخطوة الأخيرة ، خطوة التقدم للعمل ولكن هذه الخطوط لم تتخذ إلا بعد أربع سنوات بعد أن ختمت دراستى العالية وخرجت من مدرسة الحقوق ، أى فى عام ١٩٣٣ وإن كانت جهودى ، منذ سنة ١٩٢٨ حتى هذا التاريخ الأخير ، سلسلة إعداد وترتيب وتمهيد ، كما أخطو هذه الخطوة الأخيرة .. فقبل أن أغادر الخديوية ، وفى أشهرى الأخيرة بها شرعت أكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان « رسالتى » وضعت فيها بذرة مصر الفتاة الأولى ولو أنك رجعت إلى هذه المقالات الآن لعلمت اننى فيما كتبته بعد ذلك طوال ثمانية عشر سنة لم أخرج عن ما كتبته فى هذه المقالات[1]

---

(١) رسالتى : من مقالة نشرت فى مجلة المدرسة الخديوية .. العدد الأول .. العام الثامن فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ .

نظرية واحدة تسود العالم من أقصاه الى أقصاه ، عبر عنها الفيلسوف الألمانى « نيتشه » بصراحة اذ قال « الأرض إرث القوى والمستقبل للشعب الظافر وللصالح وحده حق الحياة » فى هذا الصراع المخيف حول الموت والحياة .. فى هذا السباق الذى تشترك فيه كافة المخلوقات تتقدم مصر العتيدة كأمة قوية خالدة ماخلدت الأيام . فمن بين أمم الأرض طرا لا توجد واحدة تضارع الأمة المصرية . هاجمتها عاديات الدهور فما استطاعت أن تنال منها ، وحاربتها الأقدار فارتدت عنها مخذولة واحتملت مصر التجربة بثبات وخرجت من الأعاصير ملؤها الحياة والفتوة تعلن الناس أنها معيدة مجدها القديم . ماواجبنا نحن الطلبة ؟ .. تلك هى رسالتى وذلك هو ندائى ، ألا إننا شباب حر ، مهمتنا العمل للمستقبل القريب . تعالوا نبنى بناء جديداً .. تعالوا نشيد عظمتنا المستقبلة على أساس من الفولاذ مما تبنى عليه الأمم . الصناعة والتجارة مدنية القرن العشرين وروح الأمم الحديثة . أن اليوم الذى لا نلبس ولا نشرب ولا نأكل فيه من الخارج يجب أن يكون جد قريب وفى هذا يجب أن نعمل إن أردنا حقا مجد الوطن . الأخلاق هى التى تجعل الإنجليزى محترماً فى كل مكان . وهى التى تجعل الألمانى بمثلين من الرجال . فى المقال التالى ترون صورة لأخلاقنا . ترون الغرور والجهل والسفسطة . فى اصلاح هذه الأخلاق يجب أن نعمل ان أردنا حقا مجد الوطن . فلنحارب الخزعبلات والعقائد الفاسدة . فلنبشر بعظمة مصر ومجد مصر وتاريخ مصر ، فلتزك « لتعضد » (بنك مصر) فى مشروعاته وشركاته ففى هذا رفاهية لأهل الوطن .. فلنناصر التجديد الاجتماعى والخلقى والأدبى والاقتصادى .. ولنبذر بذور الإصلاح فى كل مكان حللنا به .

قالوا قديما ومازالوا يقولون نحسب الأمة التى تريد الرفعة والسؤدد أن يقوم أفرادها بواجباتهم ، كل فى دائرة عمله .. التاجر فى متجره والصانع فى مصنعه والموظف فى مكتبه والطالب فى معهده .. تلك هى رسالتى وذلك هو ندائى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن تطورا سريعا قد حدث عقب هذه الأيام ، فى نشوة الحماسة التى ملأتنى فجأة وقتذاك ، فلم أكد أحصل على البكالوريا ، حتى كانت وزارة محمد باشا محمود فى الحكم ، وكان محمد باشا محمود قد عاد إلى مصر بمعاهدة تفضل جميع المعاهدات السابقة عليها ، وكنت أصبو إلى أن تتمتع مصر بشىء من الاستقرار الحزبى والحرية السياسية حتى نتمكن فى ظلها من الاندفاع فى تنظيم شئوننا الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، تمهيدا للقيام بالثورة الكبرى ! . التى أعنى بها تحقيق مجد مصر وبعث امبراطوريتها العتيدة . ولذلك فلم أتردد عندما عرض على بعض المتصلين بمحمد باشا محمود ، أن أعمل لمناصرة المعاهدة ، والدعوة لقبولها ، على أن يشرع محمد باشا محمود ، إذا ما قدر للمعاهدة النجاح فى تنفيذ برنامج مصر الفتاة .. ولقد كانت طلائع الحال لا تجعل هذا الأمر مستحيلا ، فلقد كان لوزارة محمد باشا برنامج إصلاحى بالذات . وإذن فمن الممكن إكماله بحيث يشمل نواحى الاصلاح الاجتماعى والخلقى والاقتصادى فى ظل المعاهدة .

وقد ألفنا لهذا الغرض جمعية صغيرة أطلقنا عليها اسم «جماعة الشباب الحر» . ولقد كان من حظى أن خطبت فى حضرة محمد باشا محمود ، بمجرد عودته فى نادى شباب الأحرار الدستوريين ، ولم أتردد فى أن يكون خطابى محتويا على عناصر إيمانى ووجهة نظرى ، وانى أثبت هنا للذكرى والتاريخ بعض فقرات من الخطاب المذكور كما نشر فى جريدة السياسة فى عددها الصادر فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٩ وهى :

«يا صاحب الدولة

بينما كان العالم يعيش فى دياجير الظلام وكان الإنسان يساكن أخاه الحيوان ، كانت على ضفاف النيل مدنية هى أم المدنيات ، وحضارة معجزة ، فمنذ ستة آلاف سنة كان المصريون يبنون الأهرام ، ويحنطون الأجسام ، ويبرعون فى سائر العلوم .

هذه هى مصرنا يا دولة الرئيس . وهى الجامعة التى تلقن فيها الأغريق والرومان علومهم ، فإلى عين شمس جاء أفلاطون ، وصولون ، وليكرغ ، وغيرهم ليتلقوا الحكمة عن المصريين .

وهى مصرنا يا دولة الرئيس التى أنقذت العالم بأن وقفت أمام سيل التتار الذى اكتسح طريقه من أقاصى الهند إلى مصر .

وهى مصر يادولة الرئيس التى خرجت فى أيام محمد على من الظلام إلى النور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن العدم إلى الحياة ، فوقفت أوروبا فى طريقها وطريق آمالها . مصر هذه تريد أن تنهض وأن تسترد مركزها القديم بين دول الأرض ، ولن تصل إلى ذلك بهتاف الرعاع فى الشوارع ، ولا بالخطب تلقى من فوق المنابر ، ولكن بالعمل والعمل وحده ، فهى فى حاجة إلى الزعيم العامل ، وهذا الزعيم العامل لن يكون من دم تركى أو شركسى بل من دم فرعونى تنساب فيه كريات رمسيس ومينا ... »الخ .

هذه هى بعض الفقرات التى ألقيتها أمام محمد محمود باشا ، وأنت واجد فيها نفس العبارات والأفكار التى لم أخرج عليها حتى الآن . فهى فكرة واحدة تلك التى تملأ حياتى وتملك على مشاعرى ، وأعنى بها بعث مجد مصر وتحقيق عظمة مصرنا بأسرها .. وليست حياتى إلا سلسلة متصلة الحلقات من العمل فى هذا السبيل .

على أن وزارة محمد باشا محمود لم تلبث أن سقطت ! . وسقطت معه معاهدته ، ولكننى ظللت ماضيا فى طريقى .. فلم أكد أدخل إلى الجامعة ويلحق بى أخى فتحى رضوان ، حتى فكرنا فيما يجمع الشباب ويوحد أفكارهم ، ويدفع بجهادهم إلى ميدان جديد هو ميدان مصر الفتاة ، فدعونا إلى الاحتفال بـ ١٣ نوفمبر على أسلوب جديد ، وهو أن نجتمع فى سفح الأهرام ونقيم به معسكرا نبيت فيه ليلة العيد المذكور ، وفى الصباح نحيى العلم وننزل إلى المدينة .. ولقد نفذنا المشروع فحصلنا على الخيام وأقمنا المعسكر ، ولكن لم يوافنا فى المعسكر إلا نفر لم يتجاوز عدد الأصابع ، وهكذا لم تكن البيئة مستعدة وقتئذ لقبول هذه الروح الجديدة .. ولقد انقضى على هذا التاريخ سبع سنوات قبل أن أرى تحقيق هذا المشروع ، عندما اجتمع مندوبو شعب مصر الفتاة فى عامها الثالث فى سفح الأهرام ، واحتفلنا بالعيد كما سترى ذلك فى متن الكتاب .

لم ينقض العام المذكور قبل أن نقوم بمحاولة جديدة لنشر مبادئنا ، فاتفقنا مع أحد معارفنا للحصول على رخصة جريدة ، واخترت لها اسم البعث فإذا هو اسم لجريدة أخرى فاختار أخى فتحى اسم الصرخة ، فكانت الصرخة التى ستبقى إلى الأبد علما على مصر الفتاة ، وسجلا لوقائعها ، وإذا كان الناس لم يسمعوا عن الصرخة مقترنة بمصر الفتاة إلا فى أكتوبر سنة ١٩٣٣ . فإن الصرخة فى الواقع قد صدرت أعدادها الأولى فى مارس سنة ١٩٣٠ ، وكانت تحمل فى صدرها وفى ثنايا سطورها هذه المبادىء والأنظمة التى أخذت شكلها النهائى وأعلنت رسميا بعد ذلك بأربع سنوات تقريبا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد نشرت الصرخة فى عددها الصادر فى ٧ مارس سنة ١٩٣٠ مقالة عن مصر الفتاة تحت عنوان «طريقنا إلى العظمة» . وقد جاء فى هذه المقالة بعد مقدمة تخيلت فيها أن جموع شباب مصر الفتاة قد اجتمعت حول الأهرام لتدرس الوسائل التى يجب عليها انتهاجها لبعث الحياة فى مصر ولإعادة مجدها القديم ما يأتى :

انظر .. انظر وحدق النظر ، فهذا هو العلم المصرى يرتفع فوق الأهرام وسط هذه الموسيقى والأناشيد ، وهاهى الجموع ترفع يدها بالتحية ، حتى إذا وصلت القمة دوى النفير وانطلقت الصرخة الكبرى التى تناثرت لها الرمال وتفتت الصخور .

المجـد لمصـر

تلك صرختهم وهذا ما اجتمعوا لأجله . إنهم شباب مصر الناهضة جاءوا من أقصى الصعيد حتى الإسكندرية ، جاءوا من الأكواخ والقصور ليجتمعوا فى حقل المجد ، تحت سفح الأهرام الخالدة ، جاءوا كلهم إرادة وعزيمة ، ليقوموا بالمعجزات فى سبيل الوطن فلنسمع ماذا يقول لهم الشاب الذى تقدم بجانب السارى ! .

«يا شباب النيل وياسلالة الفراعنة . يا أحفاد المجد ويأرباب العبقرية . هذه الاهرام تظللنا وهذا أبو الهول يرمقنا . وهذه الراية ترفرف فوقنا . وها هى الشمس تلهب نفوسنا كلها . تسألكم لماذا تخليتم عن الزعامة بين الأمم ؟ هل كللتم أو أصابكم الملل ؟ .. أم استسغتم طعم الذلة والهوان ؟ . فدوى صوت الجموع هادرا صارخا : كلا والنيل والأهرام . سنعيد المجد وندرك أسباب السماء .

فصاح الشاب ثانية . وماذا أنت فاعلون .

فاندفع الجميع ينشدون .

سنكرس حياتنا لأجل مصر .

سنبذل أرواحنا فداء لمصر

سنعلم الطفل والفتى والكهل ان يحب مصر

فى كل صباح وظهر ومساء سنتغنى بمجد مصر

خفتت أصوات الجموع . فعم الكون السكون . وعاد الشاب يتكلم (إذن هلموا إلى المدينة نسير فيها بموسيقانا وأناشيدنا . هلموا نكهرب جو القاهرة بأنفاسنا وعزماتنا وليعد كل منا بعد ذلك إلى عمله وجهاده فى سبيل مصر) فاصطف الشباب جماعات وكتائب وانحدروا من الأهرام وساروا فى الطريق تتقدمهم الموسيقى وترتفع عقائرهم بالغناء يحمل كل منهم مشعلا موقدا رمز النور الذى سينبعث من مصر ! .

وعندما وصل الجيش الى القاهرة ودوت أناشيده فى سمائها رجعتها النوافذ والأبواب ووقفت المركبات والسيارات وكلها تصيح :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسمعت ذلك كله ورأيته أيها الرفيق .. تلك هى مصر الفتاة وهذه هى المليشيا الفرعونية .

بهذه الطريقة استقلت الممالك وارتقت . ومن قبل كانت إيطاليا الفتاة وبولندا الفتاة والمانيا الفتاة وإيرلندا الفتاة وتركيا الفتاة .. وكل أمة أرادت استقلالاً أو نهوضا أو مجدا اتبعت هذا الطريق . طريق الشباب الملتهب بحماسة الايمان ! .

فما أحرانا بتكوين مصر الفتاة لنعيد لمصر بهجتها ومجدها ! .

* * *

هذا هو الصوت الأول من أصوات مصر الفتاة فى صورتها الأخيرة ولكنا لم نستطع أن نستمر فى مواصلة إصدار الصرخة لسبب صغير جدا ، وهو أننا لم نجد موزعا يوزع الجريدة ، ومن ناحية أخرى فقد رأى صاحبها أن يستقل بإصدارها بعيدا عن مبادئنا وبرنامجنا ، واقترب ميعاد انتهاء السنة الدراسية وشغلتنا الامتحانات . وفى الصيف نفذت مشروعا كان يخالجنى منذ ثلاث سنوات ، وهو زيارة باريس ومشاهدة أعلامها ودراسة الحضارة والنهوض الأوربى ، فجمعت من الأموال ماقتصدته طوال هذه السنوات وماأعاننى به أخى فتحى رضوان ، وسافرت إلى باريس على ظهر إحدى المراكب ، ولقد كان عالما جديدًا ذلك الذى فتح أمام بصيرتى فقد رأيت مظاهر النهوض والقوة .. رأيت حيوية الشعوب كيف تتجلى وكيف تستثمر .. رأيت ماذا يمكن أن تفعله يد الإصلاح والنظام فى تجميل الحياة وجعلها أكثر منطقا .. على أن الذى هزنى أكثر ماهزنى هو قوة الشعب ، وإحساس كل فرد بشخصيته وحريته وقوة رأيه وعقيدته ! . راعنى كيف تقف الحكومة نفسها فى خدمة المجموع فعلاً .. وكيف تعتمد وتستمد قوتها من العمل لخير المجموع وسعادة الفرد .. على أن إيمانى بمصر قد زاد اكتمالاً ، فقد أحسست بقوة أننا لايمكن أن نقل عن هؤلاء الأقوام ، وأن شعبنا لاتنقصه المواقف والكفاءة التى تؤهله لمنافسة هذه الشعوب والارتقاء عليها ! .. بل كل مشكلته أنه بقى محرومًا من الحاكم الصالح والزعيم الصالح ، فلم يتطور التطور الطبيعى ووقف حيث سار الناس .. لم يستطع الفرنسيون مطلقا أن يقنعونى أن لهم جوهراً يخالف جوهر المصريين وأننا أعجز من أن نحقق ماستطاع الفرنسيون أن يحققوه .. بل بالعكس زدت إيمانًا بقوة شعبنا ، إذا ماشرع فى التطور تحت قيادة زعيم مصلح .

وثمة أثر آخر تركته فى نفسى زيارة باريس فى ذلك العهد . وهو تزعزع ثقتى بالمدنية الغربية فى مظهرها المادى ، وشعورى بأن هذه القواعد المادية الإلحادية التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا تعترف بحق أو فضيلة أو دين أو عرف أو تقاليد لن تنتهى إلا بنتيجة واحدة ، وهى تدمير أوروبا شر تدمير ! . ولقد كان هذا فيما بعد مبدأ أساسيا من مبادئ مصر الفتاة ، التى قامت على التمسك بكل ماهو مصرى وشرقى ، واحتقار كل ماهو أجنبى ، والتعصب للمصرية والإسلامية ، حتى آخر حدود التعصب فقد امتلأت إيمانا بأن هذا الأسلوب السليم لإنهاض مصر وإنقاذها من التردى فى الهوة التى تتردى فيها أوروبا ! . أجل إن فى أوروبا وفى شعوب أوروبا بعض الفضائل وبعض المظاهر الطيبة ، ولكن من العجب أن كل هذه الفضائل وهذه المظاهر الطيبة ليست ثمرة من ثمارة المدنية الغربية ، ولكنها ثمرة من ثمار الإنسانية الناضجة على العموم ، ولقد كان الشرق بصفة عامة والإسلام بصفة خاصة هو مصدر هذه الفضائل والقوى .. لقد أعجبنى فى باريس من أخلاق القوم الصدق والصراحة فى المعاملة والأمانة والنظافة والنظام والتعاون والتضامن ! . ولعمرى أليست هذه كلها فضائل الإسلام ومبادئه ؟ أليس هو الذى يدعونا إلى كل هذه الخصال الحميدة ، وكل هذه الأسس العمرانية .. فإذا كنا قد جهلنا هذه القواعد واستفاد منها الغرب ، فعندما نهيب بأنفسنا من جديد لاعتناقها والتمسك بها ، فلسنا فى هذا نقلد أو نسير خلف الغرب ، ولكنا فى الحق نستوحى ديننا وماضينا وتاريخنا .. وإن كانت أوروبا تتميز بشىء فهى تتميز بهذا الذى حدثتك عنه من الإلحاد والرغبة فى التحرر من الأخلاق والقوانين ، وإشباع الشهوات المادية ، بل والتطور بها تطوراً مخيفاً .. وأخيرا تتميز بروح الاستبداد بالشعوب الضعيفة ونزعة الخصومة والعداء والتحاسد فيما بينهم وسريان الشيوعية المخربة المدمرة لكل ماهو جميل وروحى وكذلك الاشتراكية المتطرفة .. هذا القسم الذى تتميز به أوروبا هو ناحية الضعف فيها وهو بدء النهاية لحضارتها ومدنيتها .

* * *

وهكذا عدت من فرنسا بعد شهر ونصف شهر وفى نفسى ألف رغبة ورغبة للعمل والعمل فى ميادين مختلفة .. وأفكارى تتبلور وتتكون نهائيا ، وإيمانى بمصر وضرورة العمل لبعثها بعثا جديدا داخل إطار الصبغة المصرية الإسلامية بعيدا عن زيف المدنية الغربية قد أخذ صورته النهائية التى لم يطرأ عليها تغير بعد ذلك فى أى تفصيل من تفاصيلها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولذلك فلم نكد نستقبل العام الدراسى الجديد ، وقد انتقلت إلى كلية الحقوق حتى ألقيت محاضرة عن باريس فى الجمعية الجغرافية ضمنتها آرائى السابقة الذكر ، وعرضت فيها بالفانوس السحرى عشرات من الصور التى أحضرتها معى من باريس وتلا هذه المحاضرة عدة مناظرات جرت بينى وبين بعض النظراء فى الجامعة وفى جمعية الشبان المسلمين وقد جعلت أختار فى هذه المناظرات دائما الطرف الذى يكون مبدأ من مبادئ مصر الفتاة . ففى مناظرة بين المدنية الشرقية والغربية وأيهما أولى بالتفضيل اخترت، الشرقية وشرحت وجهة نظرى ، وأن مايعجبنا فى الغربية هو فى الأصل شرقى ، ويبقى بعد ذلك امتيازنا بعقائدنا الروحية وتقديسنا للأخلاق والفضيلة وفى مناظرة بين الفرعونية والعربية ، أى هل نتمسك بفرعونيتنا داخل حدود مصر ، ونهمل الأقطار العربية والمسحة العربية فى حياتنا وحضارتنا . أم العكس ؟ اخترت جانب العروبة وشرحت وجهة نظرى فى الرابطة التى تربط مصر بالدول العربية والتى تخول لها زعامة المسلمين ، وأن مصر يجب أن تكون حريصة على هذا التراث وهذا المجد فلا تتخلى عنه جريا خلف بعض الذين يريدون أن يفصلوا مصر عن هذا المجتمع الدولى العظيم ، الذى تربطنا به اللغة والدين والعادات والماضى المشترك .. والذى تربطنا به أخيرا رابطة المصلحة الشخصية لمصر .. وليس يعنى هذا أن لانستغل التراث الفرعونى فى الوقت ذاته ، فنفخر به ونزكى به إيماننا وثقتنا بأنفسنا ونتخذه مظهرا من مظاهر العزة والقوة ! .

وهكذا توالت عدة مناظرات فى أمكنة مختلفة ، وكنت أخرج فى ختام هذه المناظرات منتصرا وحاصلاً على أغلبية الرأى العام ولقد حددت بهذه الانتصارات كما قلت وجهة نظرى فى مختلف الشئون العامة تحديدا نهائيا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مشـــروع القـــرش
٣

كان المتفق عليه أن نبدأ كفاحنا السياسى حالما أنتهى من الدراسة ، وأصبح طليقا من الدرس والامتحانات ، ليكون الإنسان متفرغا للكفاح أولاً وأخيرا .. وكنا فى ذلك الوقت نعيش فى ظل عهد لايسمح للطلاب بالاشتغال بالمسائل السياسية ، وأعنى به عهد وزارة إسماعيل صدقى باشا ومع ذلك فقد بدأت أشعر برغبة قوية فى العمل ، وفى عمل ضخم يهز كيان الأمة هزا ، ويمهد السبيل لخطواتنا النهائية ، فإذا بفكرة مشروع القرش تخطر لى ! . وسرعان ماشرعت فى تنفيذها ..

كانت مصر فى هذه الأيام تعانى أزمة اقتصادية مخيفة ، فقد هبطت أسعار القطن وأصبح لايجد مشتريا ، وفى وسط ذلك اختل الميزان التجارى ضد مصلحة مصر اختلالاً لاعهد لها به من قبل ، وأصبحت الأزمة والشئون الاقتصادية هى مايشغل بال كل مصرى ، وزاد هذا التدهور السريع الارتباك فى مالية مصر واقتصادياتها ! . وأصبح لامناص من مراجعة الموقف الاقتصادى برمته .. وقد تجلى خطر اعتماد مصر على الزراعة فقط وزراعة القطن بصفة خاصة .. كما تجلى خطر اعتماد مصر اعتمادا كليا على أوروبا فى كل ماتحتاجه من مصنوعات ، ومن هنا فقد أدركت أن أكثر ماتحتاجه مصر وسط الظروف المختلفة التى تحيط بها ! هو العمل على إيجاد الصناعات بها ، ونشر روح الصناعة الوطنية فى كل مكان .. ولما كانت الصناعة تحتاج إلى رؤوس أموال ، لم أشأ أن تجمع رؤوس الأموال من بضعة أفراد ، بل رأيت أن مما يحقق غايتنا بكمالها أن يساهم الشعب مجتمعا فى إنشاء هذه الصناعات القومية ليظل حريصا على تشجيعها فيما بعد ، ويسمح لنا أثناء جمع هذه الاكتتابات الصغيرة أن نلقن أبناء الشعب دروسا فى التعاون والاعتماد على النفس ، ونشر الدعوة للصناعات المصرية .. وأخيرا سوف يكون لنجاح مثل هذا المشروع ، وقيام مصنع من المصانع بأموال الشعب ، أكبر الأثر بإحساسه بقوته إذا ماتعاون وتضامن .. وهذه كلها هى المعانى التى صغتها فى شعار مشروع القرش وقتذاك «تعاون وتضامن فى سبيل الاستقلال الاقتصادى» .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان اختيار وحدة الاكتتاب بعد ذلك أمرا سهلا ، فقد جعلته قرشا حتى يسهل على كل فرد دفعه .

ولست أريد الآن أن أذكر تاريخ الجهود التى بذلت فى سبيل تحقيق هذا المشروع ، ولكنى لا أستطيع أن أنسى كيف قوبلت بالسخرية فى بادىء الأمر ، بدعوى أن المشروع ليس إلا حلما من الأحلام ، أو خيالاً من الخيالات .. حتى إن المحرر (فى جريدة الأهرام) الذى حملت إليه فكرة المشروع مسطورة ، رمى الورقة فى وجهى قائلاً لى : إن هذا (لعب عيال) .. وبعد أيام قلائل قيل لى من محرر آخر : إن كرامة الجريدة لاتحتمل نشر هذه السخافات ! ولقد كان هناك ألف عقبة وعقبة فى طريق المشروع ! .. أقلها قيام الحرب الحزبية فى مصر على أشدها وقتذاك وتربص كل جانب بالآخر .. وكانت هناك رقابة وزارة المعارف الشديدة التى لا تكاد تسمح لطالب بكتابة كلمة فى إحدى الجرائد .

وكان المشروع يبدو بذلك مستحيلاً .. وأحيانا مضحكا ..

فقد قال فيه بعض القانونيين كلاما طويلا عريضا ، عندما بدأنا نشاطنا ، وبدأ المشروع يطرق الآذان .. فما كنت تسمع إلا اعتراضا ، وسخرية ، فى كل مكان ، فى الجامعة وسط صفوف الطلاب ، وفى الشارع ، وفى النادى .. ولكن الله سبحانه وتعالى وفقنى توفيقا عجيبا إذ هدانى إلى سعادة على باشا إبراهيم ليكون رئيسا للجنة التى تدرس الموضوع وتبحثه ، وكان هذا الاختيار بدء تطور جديد فى حياة المشروع . فقد أسرعت الصحافة لنجدته ، وأصدرت دار الهلال عددا خاصا من إحدى مجلاتها خصصت إيراده للمشروع ، فجمعنا من هذا العدد مايقارب الثلاثمائة جنيه مصرى فكان ذلك نواة لرأس مال المشروع ، واستطعت بهذا المبلغ أن أمضى حتى النهاية فى إخراجه إلى حيز التنفيذ ، من حيث إعداد الطوابع اللازمة لجمع الاكتتابات ، وعمل الشارات والصناديق ، والدعاية اللازمة فى كل مكان .

نجح المشروع واهتزت له مصر من أقصاها لأقصاها .. ورأيت بعينى رأسى صورا ومشاهد جعلت الدموع تطفر من عينى .. رأيت شباباً ينتسبون إلى الوزراء ، وإلى المستشارين ، وإلى كبار الأعيان ، يسهرون الليل وسط الصقيع ! كى يستلموا أعداد الجرائد وطوابع المشروع ليقوموا بتوزيعها فى الصباح كباعة الجرائد ! .. رأيت شبابا يعملون واصلين الليل بالنهار لا يكلون ولا يملون .. يسافرون من الإسكندرية حتى أسوان ! . ليحملوا الطوابع والشارات وليتصلوا باللجان .. رأيت حولى عشرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآنسات وألوف الشباب ، تلمع عيونهم ويهتفون بمجد مصر ويستعذبون العمل فى سبيل استقلالها وتحريرها ! .. هذا هو نجاح مشروع القرش كما كنت أريد ، هذه هى المعنوية التى رغبت فى إثارتها .! هذا هو الكسب العظيم الذى أفادته مصر من جراء هذا المشروع .. وعندما أقمنا مهرجان المشروع فى حديقة الأزبكية ، واكتظت الحديقة بما يزيد على خمسين ألفا من خيار الناس جاءوا كلهم ليحتفلوا برسالة التحرر الاقتصادى .. وليعلنوا رغبتهم فى أن يستقلوا بصناعتهم ، وأن لا يلبسوا إلا من صُنع بلادهم ، وأن لا يأكلوا إلا من ثمراتها .. وقفت فى ركن من الحديقة وكان قد مضت على عدة أيام لم أنم فيها وبضع عشرات من الساعات لم أتذوق طعاما .. وقفت فى ركن من الحديقة مختبئا عن الناس ! . وقلبى ينبض بشدة والدموع تذرف من عينى ! . وأنا أقول بصوت مرتفع .. هذه هى .. هذه هى روح مصر الفتاة التى أنشدها .

* * *

كان النجاح المادى فى مشروع القرش أقل بكثير من نجاحه المعنوى ، فلم يزد المجموع عن سبعة عشر ألفا فى العام الأول ، وثلاثة عشر ألفا فى العام الثانى .. ولكنى مع ذلك شرعت فى العمل حتى أحقق ماوعدت الناس به . وكانت الصناعة الوحيدة التى استهوتنى منذ أمد بعيد ، هى صناعة الطرابيش .. فالطربوش هو شعار مصر القومى ، ولقد كنت أشعر دائما بالمهانة إذ كان شعارنا الوطنى أجنبيا تنسجه لنا بلاد أخرى لا تلبس الطرابيش ، فتقوم بحياكته ، كما تقوم مصانعها الأخرى بعمل الزجاج الملون والعقود البراقة ، لتباع فى أواسط أفريقيا وآسيا ! . وكانت لمصر صناعة عريقة فى الطرابيش إبان محمد على وإسماعيل ! . بل وكانت لمصر صناعة الطرابيش فى مدينة قها ، فتدخل الأجانب وحطموا هذه الصناعات المصرية ! . فرغبت فى أن أثأر لمصنع قها ، وأن ألبس كل مصرى طربوشا من صنع بلاده ! .

ولقد كان التفكير فى إنشاء مصنع للطرابيش بهذا المبلغ الصغير ، أى بسبعة عشر ألفاً من الجنيهات ، يعتبر أمرا جنونيا ، ومع ذلك فقد قررت أن أمضى فى الموضوع حتى النهاية .

كان أول عقبة صادفتها فى هذا السبيل ، هو تنحى سعادة طلعت باشا حرب عن العمل معنا لتحقيق المشروع ، فقد رأى أنه من المستحيل إنشاء مصنع الطرابيش ، واستدعانى فى يوم من الأيام إلى مكتبه وسلمنى ملفا (دوسيها) يتضمن مجهودات البنك ومساعيه لإنشاء مصنع للطرابيش ، وأخبرنى كيف أن بنك مصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكل حوله وطوله ، قد عدل عن تنفيذ الفكرة لصعوبتها ، وخوفا من المنافسة الأجنبية القاتلة ! . فصناعة الطرابيش كانت فى القديم احتكارا نمسويا ، ثم أصبحت احتكارا تشيكوسلوفاكيا بعد أن تحولت مصانع النمسا القديمة إلى سيادة تشيكوسلوفاكيا ، وهذه المصانع من القوة وضخامة رأس المال والاقتدار الفنى ، بحيث لايمكن مقاومتها بحال من الأحوال . ولكن هذه الصعوبات لم تؤثر فى تصميمى ، لأننى لم أكن من رجال الصناعة أو المال لحسن الحظ ، ولكننى كنت صاحب فكرة معنوية وصاحب الفكرة لا يعبأ بالصعوبات .. فافترقنا أنا وطلعت باشا حرب مختلفين فى هذه النقطة ، ولكن الرجل تمنى لى النجاح والتوفيق فى مهمتى وأعطانى (الدوسيه) الخاص بصناعة الطرابيش لأنتفع به فى محاولتى ..

وقد يدهش كل إنسان أن يتصدى طالب مثلى فى كلية الحقوق ، ويأخذ على عاتقه إنشاء مصنع للطرابيش وهو الذى لا يعلم من أمر الصناعة شيئاً ! . ولكنه الإيمان .. ولكنه العزم والتصميم .

وسرعان ماجاءت الحوادث والأقدار لنجدتى ، فقد تقدم إلىّ مهندس ألمانى يسمى (فورهانز) وأخبرنى أنه أطلع فى الصحف الأفرنجية على تفكير جمعية القرش فى إنشاء مصنع للطرابيش ، وأنه مستعد لأن يقدم مشروعا وعطاء كاملين على إنشاء مصنع للطرابيش بالمبلغ الذى جمعناه من المال ! فناشدته على الفور أن يفعل . انصرف من عندى واعدا إياى أن يرجع إلىّ بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع ، ولقد عاد بعد الموعد المضروب وهو يحمل فى جعبته مشروعا كاملاً لإنشاء مصنع للطرابيش ، وراح يعرض على الرسوم ويعرض على صور الماكينات ، ويعرض على فوق ذلك كله تعهد الشركة أن تنتج لنا طرابيشا كأحسن طرابيش فى السوق المصرية ! وأن لا تأخذ ثلث المبلغ المستحق لها من ثمن الآلات إلا بعد أن تنجح فى إنتاج طرابيش كالعينة المتفق عليها ، وأنها على استعداد لأن ترسل الخبراء الذين يتولون إنشاء المصنع وتعليم العمال المصريين إنتاج الطرابيش . ولم تكن الشركة فى نهاية الأمر تطلب ثمنا لآلاتها وماكيناتها أكثر من بضعة عشر ألفاً من الجنيهات . كان ذلك المشروع المقدم من هذه الشركة الألمانية المسماة «هارتمان» بمثابة نجدة إلهية لى ، فقد عزز وجهة نظرى فى إمكان إنشاء مصنع للطرابيش ! . وبعد أن كنت أدعو لهذا المشروع على غير أساس وهدى ، أصبح تحت يدى مشروع كامل أستطيع أن أتحدى به كائنا من كان ...

ولكن الشركة التشيكوسلوفاكية راحت من ناحيتها تعمل لإحباط المشروع ! فأوفدت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مندوبين لها فى مصر سعوا لمقابلة رئيس الحكومة المصرية وكان فى ذلك الوقت هو إسماعيل صدقى باشا ! . وأقنعوه بأنه من العبث أن نفكر بهذا المال التافه فى أن ننافس شركتهم العتيدة ! . واقترحوا عليه أن يقنعنا بالعدول عن إنشاء مصنع للطرابيش فى مقابل أن يساعدونا فى إنشاء مصنع لعمل البطاطين ! .. وأن يقدموا الآلات اللازمة لهذا المصنع بالمجان ، ولقد كان هذا عرضا مغريا جدا ، جعل رئيس الحكومة يستدعى مصطفى بك الصادق مدير مصلحة التجارة والصناعة وقتذاك ، ووكيل مشروع القرش ، ويطلب منه العدول عن إنشاء مصنع الطرابيش ، والاتفاق مع الشركة الأجنبية . !

وقد حمل مصطفى الصادق بك هذا الرأى إلى مجلس إدارة المشروع ، وكادوا يوافقون عليه لولا اعتراضى واحتجاجى الذى لم يفلح وقتها إلا فى تأجيل إصدار القرار النهائى ، لمدة أسبوع واحد ... فأسرعت فى اليوم التالى إلى مقابلة صدقى باشا رئيس الوزراء ، لأقنعه بأن لا يقف فى وجه هذا المشروع الوطنى . بل ينبغى عليه أن يشجعه ويعاونه باعتباره حامى النهضة الصناعية فى مصر ! . فأصغى الرجل لآرائى وأفكارى ، وتأثر بحماستى للمشروع ، فأعطانى موافقته الكتابية على المضى فى إنشاء مصنع الطرابيش . ! ولقد كان هذا أعظم نجاح لى فى وجه أعضاء مجلس الإدارة الذين دهشوا كل الدهشة لتوفيق فى الحصول على هذا التأييد من ناحية صدقى باشا .

وهكذا لم تستطع الشركة أن تنجح فى هذا المضمار ، فرأت أن توجه مجهوداتها نحوى شخصياً ، فدعتنى للمفاوضة معها وراح مندوبها يساومنى ويغرينى بالعدول عن إنشاء مصنع الطرابيش فى مقابل أن تقدم لنا الشركة مصنعا للبطاطين ! . وتتولى هى نفسها إنشاء مصنع للطرابيش فى مصر ، وتجعل منى مديرا لكلا المصنعين .. ولكنى احتقرت هذه المساومة وأعلنت أننى ماض فى تنفيذ المشروع بالرغم من أنف الشركة وبالرغم من أنف محاولاتها الشائنة ، ولقد مضيت بالفعل .. وليس يتسع المجال الآن لذكر كل التفاصيل وكل الصعوبات والعقبات التى اعترضت طريق فى كل خطوة ! . والمهم أنه جاء اليوم الذى وضع فيه حجر الأساس لإنشاء مصنع الطرابيش بشارع برج الظفر فى حفل رائع تجلت فيه حماسة الشباب وروعة انتصاره ! .

* * *

وقد تم التعاقد مع شركة هارتمان الألمانية على توريد الآلات اللازمة . على أن مصاعبنا لم تنته عند هذا الحد ، بل إنها بدأت بصورة عنيفة ، فلم نكد نفرغ من التعاقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع الشركة المذكورة حتى فاجأتنا بعجزها على المضى فى تنفيذ المشروع ! . بحجة أنها كانت تعتمد فى تنفيذه على خبير تشيكوسلوفاكى . وقد سعت الشركة التشيكوسلوفاكية المنافسة إلى هذا الخبير وأغرته بالمال ، حتى حملته على التخلى عن العمل مع الشركة الألمانية ! ..

وكان معنى ذلك انهيار آمالى وأحلامى فى إنشاء مصنع الطرابيش ! . ولكنى لم أدع اليأس يتغلب على ، وسعيت إلى وزير المانيا المفوض فى مصر بصحبة سعادة على باشا إبراهيم رئيس المشروع واحتججنا لدى الوزير على موقف الشركة ، وأفهمناه أن ذلك التراجع من ناحية الشركة عن تنفيذ تعهداتها سيضر بسمعة المانيا فى مصر ! . بل وفى الشرق كله ، فاهتم الوزير اهتماما عظيما بالموضوع ، وكتب لوزارة الخارجية الألمانية طالبا منها التدخل ، وانتهى الأمر بأن عادت الشركة الألمانية لتنفيذ تعهدها وأعلنت من جديد استعدادها لتوريد الآلات اللازمة بعد ستة أشهر ...

ومضت الأشهر ووصلت الآلات أخيرا وارتفع بناء المصنع شامخا أنيقا جميلاً ذا طراز فرعونى بديع ! .

وتم تركيب الآلات ، وجاءت اللحظة الخالدة التى قررنا فيها إدارتها لأول مرة ! . ولقد مضت على هذه الذكرى الآن سنوات وسنوات ومع ذلك فمازلت أتمثل هذه اللحظة الرهيبة التى شعرت فيها بقشعريرة الانتصار ! . مازلت أسمع أصوات الماكينات تدوى بين جدران المصنع والصوف يأخذ طريقه من آلة إلى أخرى ، لإخراج أول طربوش مصرى صنعته الإرادة المصرية والإيمان المصرى ! . ومازلت أحس بحرارة الدموع التى سالت على وجنتى فرحا وابتهاجا وإذن لم أكن عابثا ولا ماجنا ... لم أكن خيالياً ولا معتوها ! وإنما كنت مصريا مؤمنا ، عرف كيف يحول إيمانه إلى عمل فانتصر ، وانتصرت مصر كلها ، وراحت تكلل رؤوسها بهذه التيجان المصرية الصميمة ، وأثبتت للدنيا أن العامل المصرى لا يقل اقتدارا عن أى عامل أوروبى ، وأثبتت للدنيا أن الإرادة المصرية تستطيع أن تتغلب على كل شىء متى صدق العزم وخلصت النوايا ! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نص الخطاب
الذى ألقى فى حفل وضع حجر الأساس لمصنع الطرابيش

سيداتى وسادتى . إخوانى وأصدقائى :

سمعتم منذ لحظات سعادة رئيسنا يلقى كلمة الجمعية الرسمية ولن أعود فأحدثكم عن ماهية مشروع القرش وتاريخ نشأته ، والأطوار المختلفة التى مر بها .

فلقد عدَّد لكم الأشخاص الذين هم جديرون بشكرنا وتقديرنا ، فلم يبق لدى ما أقوله من هذه الناحية ، الا أن أحدثكم عن مصنع الطرابيش بالذات ولماذا اخترناه دون سواه من المشاريع الأخرى ، وما هى قدرته على الإنتاج الى آخر هذه المعلومات التى يهم الرأى العام الوقوف عليها .

على أننى فى حديثى أيها السادة لن أكون إلا كما أنا ، بصفتى الشخصية شابا عاديا من شباب مصر الفتاة ، أو بالأحرى متطوعا من متطوعى القرش صريحا بكل ما فى الشباب من صراحة وجرأة ، متفائلا بقدر ما فى الشباب من إيمان وأمل .

نتساءل أيها السادة : لماذا اخترنا الطرابيش لتكون أول صرح من صروح القرش ؟ أو بمعنى أصح : لتكون أول حجر فى بناء استقلالنا الاقتصادى ، الذى يسعى لأجله مشروع القرش ؟ هل كنا فى ذلك نطيع عاطفة فحسب أم أن ذلك كان نتيجة تفكير وإمعان ؟ . الحق أيها السادة أن الأمر لو كان وحى عاطفة لكان ذلك وحده سببا كافيا للبدء به فالعاطفة هى كل شىء فى حياة الأمم ! وما الاستقلال والمجد والعزة إلا مجموع عواطف الشعب ! متخذة هذه الصور المادية .. أو ليس من العار أن شعبا ناهضا مجاهدا يصاغ له شعاره القومى فى الخارج ؟ فى بلاد لا تعرف الطربوش ولا يلبسه أهلها . والله لو لم يكن هناك إلا هذه الفكرة تحفزنا لإنشاء مصنع طرابيش لكفى بها مبررا ، فما بالكم وقد تضافرت الظروف والحيثيات لتدفعنا فى هذا التيار .

فقد خرجنا من موسمنا أيها السادة بسبعة عشر الفا من الجنيهات لا أكثر ، وهذا المبلغ لا يصلح لصناعة لها قيمتها سوى الطرابيش فقبل الجمع كنا فكرنا فى إنشاء مصنع (للبدل) الصوفية ولكن المبلغ الذى حصلنا عليه لا يحقق هذه الغاية التى تحتاج إلى أموال طائلة ، وكانت هناك غير صناعة الطرابيش صناعات عدة صغيرة يمكن اعتمادها على هذا المبلغ مثل صناعة الالبان أو السجاير على أن مثل هذه الصناعات موجود بالفعل فى مصر يقوم به مصريون ، ويشرف عليه مصريون ، وما كان مشروع القرش ليبدأ برنامج أعماله بمنافسة المصريين ، وهكذا ترون أننا كنا محكومين بالظرف المالى لانشاء مصنع للطرابيش . وتلفتنا فى عالم الصناعات المصرية فاذا بنا قد وضعنا الأسس فى مختلف صناعات النسج والغزل الا صناعة الصوف وغزل الصوف ، فكان علينا أن نبذل جهدا لسد هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النقص بإنشاء صناعات الصوف ، وصناعة الطرابيش ليست الا فرعا من صناعة الصوف تعتمد على غزله ، هذا الغزل الذى يمكن استغلاله فى الوقت نفسه فى صناعة البدل والبطاطين والصدارى والجوارب الخ هذه الصناعات الهامة

واذن فقد انتصرت صناعة الطرابيش أيضا على غيرها من حيث أنها خطوة فى سبيل صناعة من أهم الصناعات .

على أننا نتساءل فى النهاية : هل هى عملية مربحة بقدر ما هى هامة ، فإذا أقدمنا عليها جمعنا بين الغاية القومية والربح ؟ فكان جواب التساؤل غريبا ! . لأن المباحثات انتهت إلى أن الطربوش بسعره الحالى يزيد أضعافا مضاعفة عن تكاليف انتاجه ، وما ذلك الا نتيجة الاحتكار وأهواله .

وصناعة الطرابيش بعد كل هذا أيها السادة ليست بشىء ذى بال أو هى سر من الأسرار ، بل هى صناعة من صناعاتنا التى مارسناها ونمارسها بنجاح غريب ، فمنذ نيف ومائة سنة أوجد محيى مصر الحديثة محمد على باشا صناعة الطرابيش بنجاح ، واتخذ مقرا لها مدينة فوة ، وقد قيل لى إنك السائر الى هذه المدينة يرى آثار المصنع العظيم . ولقد عفت كل الصناعات التى أوجدها محمد على باشا تقريبا إلا صناعة الطرابيش ، فقد ظلت حتى اليوم وحتى الساعة قائمة رغم كل شىء ، ولعل هذا يدهشكم بل لا يكاد يصدق ، ولكنها الحقيقة ، فصناعة الطرابيش موجودة فى القلعة منذ عشرات السنين ، تعمل بدون انقطاع لسد حاجة الجيش والبوليس من الطرابيش ، أى تنتج ما يزيد على مائة ألف طربوش سنويا ، وهى كمية لا يستهان بها بالنسبة لاستهلاك مصر العام . ولا تحسبون أن طرابيش القلعة لاقيمة لها ، أو أنها ليست جيدة ، فسترونها رأى العين بعد قليل فى مصنعنا الصغير وعندها ستعرفون الحقيقة الجميلة وهى أن العامل المصرى ينتج طرابيش جيدة على بعد خطوات منكم ولولا أنهم فى القلعة يستخدمون صوفا غير جيد ليلائم حاجات الجيش لكانت طرابيشهم من أرفع درجة لا تكلفهم إلا بعض قروش قلائل .

وقبل الحرب العظمى أنشأ سعادة إسماعيل باشا عاصم مصنعه فى مدينة قها ، هذا المصنع الذى أمد مصر بكل ما تحتاجه من طرابيش فى سنى الحرب ووصل فى نهاية الأمر إلى درجة عظيمة من الإتقان بشهادة الجميع .

وكأنى بكم تتساءلون : لماذا أغلق هذا المصنع العظيم ؟ .. كيف يقضى عليه هكذا بعد أن كان ناجحا موفقا ؟ فأقول لكم إنه كان ضحية منافسة غير شريفة فى وقت كانت فيه الأمة حكومة وشعبا عاجزة عن حماية صناعاتها ، فبانتهاء الحرب وعودة المياه إلى مجاريها نزلت الصناعات الأجنبية الى سوق الطرابيش المصرية بخيلها ورجلها لتقضى على المصنع الوطنى فأخذت تصرف وتصرف وتوزع النقود فى كل مكان ، وتبيع الطرابيش بأسعار غير معقولة لأنها تنقص عن تكاليف الإنتاج . وبالاختصار أنها لجأت إلى سياسة الاغراق فى أبشع صورها ، حيث لا تستطيع الضرائب أن تحد من قوتها أو تخفف من هولها وظل إسماعيل باشا عاصم وسط العاصفة يخسر ويخسر ! . ولكنه ما كان يقوى على الاستمرار طويلا ، وهو رجل فرد وهذه الشركات أقسمت أن تقضى عليه بأى ثمن ! فبدأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصنع يعانى الآلام ! وهنا تقدم السادة الغزاة للرجل وعرضوا عليه الشراء فباعه لهم وهو مرغم على ذلك ومن خلفه أمة تندب حظها العاثر الذى جعلها تسقط هكذا فريسة المنافسة الأجنبية ! واليوم لا يوجد مصرى واحد لا يعرف هذه القصة . بيع المصنع وحطمت آلاته تحطيما وسمح لى صاحبه أن أزوره ، فذهبت لأرى أطلالا بالية ، وبقايا أخشاب وأنقاض تتحدث عما كان لهذا المصنع من صولة وجولة فيما مضى !

هل تريدون الحق أيها السادة ، لقد خرجت من زيارتى لمصنع قها وأنا أقسم أن أجاهد وأجاهد لإعادة هذه الصناعة ، لا لشىء الا لتثأر لكرامتنا الاقتصادية التى امتهنت امتهانا ، بحيث باتوا يضربون المثل بمصنع قها ويذكرون قصته ليستدلوا بها على أن المصريين لا يفلحون فى الصناعة ، هذه العوامل مجتمعة من قومية ومالية واقتصادية وتاريخية ، هى التى حدت بنا كما قلت لكم الى العمل على إنشاء مصنع للطرابيش ، وعرف الرأى العام ذلك منا فقابله بالتهليل والترحاب فازددنا بذلك قوة على قوة ، ومضينا فى عزمنا لا نلوى على شىء ، ولا شك أنه قد وصل إلى علمكم جميعاً صعوبة المهمة التى أخذناها على عاتقنا والعقبات الجسام التى تعترض طريقنا ولكنا عازمون على السير إلى النهاية رغم كل شىء وسنجاهد ونجاهد ، حتى نقيم المصنع كاملا وعندها نكون قد قمنا بواجبنا وأرضينا مصر وكرامة مصر .

سنجاهد أيها السادة ونفتح المصنع ، إن وفقنا الله ، وسيوفقنا لأننا مخلصون ثم نسلمه وديعة لكم ، والكلمة يومئذ أيها الشباب لكم ، ولكنى أعرفها سلفاً ، وهذا ما يجعلنى واثقا من المستقبل ثقتى بوجودكم الآن . إنها كلمة سيسجلها لكم التاريخ انها كلمة العزة والفخار والمجد ، سوف تخلعون عن رءوسكم طرابيشهم ولو كانت أكثر أناقة وأرخص ثمنا ، لتلبسوا طرابيش الوطن ! وسينظر لكم العالم فى يقين وإعجاب بأن مصر قد بعثت من جديد فتية قوية ذات عزم ونبوغ

أما مصنعنا أيها السادة وقدرته على الإنتاج فسيخرج لكم طرابيشا تضارع أحسن ما تلبسون ولكن ذلك لن يجىء طفرة واحدة ، وان كان لن يتأخر كثيرا ، وسيكون الطربوش رخيصا جدا يضمن لتجار الطرابيش ولكم ربحا ووفرا عظيمين . وسيكفى المصنع حاجة القطر كله من الطرابيش وذلك بأن ينتج ألف طربوش يوميا أى ثلثمائة ألف طربوش فى السنة أى ما تستهلكه مصر فى الوقت الحاضر ، أما قبل سنة ١٩٣٠ فقد كانت تستهلك ضعف هذه الكمية ، فإذا فرض وعادت المقطوعية الى سابق عهدها فما على مصنعنا الا أن يشتغل طريحتين بدلا من واحدة فتتضاعف كمية الإنتاج بحيث يكون هناك مجال لتصدير الطرابيش إلى الأقطار الشقيقة ، سوريا وفلسطين والهند التى يسرنى أن أصرح لكم أنها تنتظر طربوش القرش بحماسة لا تقل عن حماستنا ولا عجب فنحن وهم أمة واحدة ، تربطنا اللغة والثقافة والدين ، والأمانى القومية . ثمة سؤال هام يتردد على الأفواه دائما ويوجه إلى أينما ذهبت ألا وهو ماذا يكون الحال لو عدل المصريون عن لبس الطربوش الى القبعة ؟ . وليس الآن مجال التفاضل بين القبعة والطربوش ، ولكنى أطمئن هؤلاء المتسائلين ، فحتى فى مثل هذه الساعة لن يخسر مصنعنا شيئا ، بل سوف يستطيع أن يساير التطور الجديد .[1]

(١) ينتج مصنع الطرابيش فى الوقت الحاضر أجود أنواع (البيريهات)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا هو مصنع الطرابيش أيها السادة الذى عزمنا على إقامته والمسألة الآن مسألة زمن فكل شىء يسير أحسن ما يكون السير الوئيد الحكيم ، وبعد أشهر قلائل لا تتجاوز الستة تزينون رءوسكم بتيجان القرش ، وتجنون ثمار التعاون والإخلاص والعزيمة ، كل هذا بقرش كما يقول لكم رئيسنا فهل تبخلون على مصر بقرش آخر ، وهلا ترون أنها صفقة رابحة أن نشترى استقلالنا الاقتصادى بقرش فى كل سنة

ستجيئكم جموع الشباب فى مثل ميعادها من السنة الماضية تجمع قرشا جديدا لتنشىء به صرحا جديدا ، سوف يجيئونكم ولكن فى نظام وتجربة وسط مهرجانات عظيمة واحتفالات قومية ! وستتضاعف قوانا علنا نحقق حلمنا الجميل ألا وهو إنشاء مصنع للبدل الصوفية أو أى صناعة أخرى من هذه الصناعات التى تؤثر تأثيرا كبيرا على حياتنا الاقتصادية !

سادتى ـ فى نفسى آمال وأمانى تريد أن تنطلق ولكنى أحبسها على الرغم منى لأنى أريد أن نعمل وأن نترك الكلام إلى العمل . أريد أن أحدثكم عن مشروع القرش ومستقبله ولكنى أترك ذلك لكم وأهيب بإخوانى لنعمل ، ولنعمل فى صمت والله معنا .

ولست أغادر هذا المنبر قبل أن أرسلها صرخة من روحى وقلبى ونفسى تنفذ إلى قلوبكم وأرواحكم . أى إخوانى الشبان لقد فكرتم فى مشروع القرش ونفذتم ـ مشروع القرش وأعددتم برنامج القرش ، ولا يزال أمامنا للوصول لغايتنا شوط طويل لكى نقطعه . نحن فى حاجة الى جهود .. وجهود جبارة . بل نحن فى حاجة الى ما هو أكثر من الجهود نحن فى حاجة الى الإيمان والتضامن .. إيمان بحقنا وعزمنا .. إيمان بأنّا أقوام علموا الإنسانية فى أيامها الخوالى وأخذوا بيدها من الظلمات إلى النور ! . وأنّا على استعداد لتعليمها ثانية ، ايمان بأنّا قادرون فنقدر .. وأنّا فاعلون فنفعل .

ونحن فى حاجة الى التضامن كحاجتنا الى الإيمان فلتتضامن ولتتحد جميعا تحت راية واحدة ، ولنعمل بفكرة مشتركة لغاية جليلة . فلنحب أنفسنا فلا نكون حرباً عليها بأفعالنا ، وليحب بعضنا بعضا كإخوة أشقاء ، ولنحب مصر بتقديس وإجلال ، ولنفكر دائما فى إسعادها ، وليكن كل جهد نبذله فى سبيل مجدها وهنائها .

ووالله لئن فعلنا هذا ، بأن آمنا وتضامنا ليكونن مستقبلنا جليلا ورائعا لنحلق فى سماء المجد ، ولنشرق على العالمين من جديد .

إلى الأمام إذن أيها الشباب .. إلى الأمام بعزم ويقين وثبات فرحين طروبين مخلصين إلى الأمام متحدين متضامنين ... شعارنا الله والوطن والملك .

وإيماننا أن مصر فوق الجميع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جمعية مصر الفتاة

٤

إلى هنا كان مشروع القرش قد نجح وحقق كل أغراضه فقد أثمرت دعاية الشباب الاقتصادية فاندفع المصريون يشجعون كل ما هو مصرى ويقبلون عليه وتعددت المصانع فى مصر والتى قام بانشائها الأفراد والشركات المصرية .

وأثبتنا للناس أن العمل فى تعاون وصبر وثبات يؤدى إلى النجاح ، فقد وجدوا قرشهم الصغير يشيد مصنعاً ويلبسهم طرابيش وطنية .. على أن النجاح المنقطع النظير هو هذه اليقظة التى شملت صفوف الشباب فتعددت الجمعيات وكلها قد اتخذت من مشروع القرش ومن مثاله قدوة وطريقا للعمل ، فتألفت جمعية القرى لمحاربة الأمية ، وأنشىء عيد الوطن الاقتصادى ، وغيرهما وغيرهما من عشرات الجمعيات والمشاريع التى أقدم عليها الشباب فى ثقة وعزم ونجاح بعد تحقيق مشروع القرش . بل لقد تجاوز نجاح مشروع القرش الحدود المصرية فنسج السودانيون على منواله وكذلك جميع البلاد العربية ، ولا يزال جمع القروش عن طريق الطوابع هو الأسلوب المتبع فى كل العالم العربى فى جميع مشروعات البر والإحسان .

وكان من تأثير مشروع القرش أن استيقظت فى نفوس الشباب كل عناصر القوة والطموح والرغبة فى العمل .. وهؤلاء الذين عملوا معى طوال عامين فى مشروع القرش بدأوا يفهمون إيمانى الكامل ورسالتى المقبلة ، فاذا بى لم أكد أخرج من الكلية متما تعليمى العالى ، حتى رأيتهم يتطلعون إلىّ ويطالبوننى بخطوتى الثانية ، وأعنى بها تأليف ما حدثتهم عنه وما وعدتهم به ، وهو جمعية مصر الفتاة . ولما أيقنت بالعزم منهم جمعتهم فى إحدى الليالى وسألتهم ، هل هم مستعدون حقا لبدء النزال ، فأقسموا جميعا على استعدادهم فأنذرتهم أن سوف تقابلهم عقبات وسوف تتزلزل الأرض تحت أقدامهم وسوف تهاجمنا الأحزاب وسوف تهاجمنا الحكومة وسوف يكون أمامنا كفاح طويل .. ولست أدرى هل كانوا يصدقوننى ساعتئذ أم أنه قد خيل لهم أننى أختبر شجاعتهم فقد اتفقوا جميعا على الهزء بهذه المصاعب ، بعد أن تعلموا فى مشروع القرش كيف تكون الغلبة على المستحيل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذن فقد عدت إلى بيتي وجلست أكتب برنامج الإحياء ووسيلته ، جلست أستجمع كل ما أشعر به فى نفسى من إيمان وعزم وأمسكت بالقلم وكتبت كل ما جرى به القلم على القرطاس ، فكان ذلك برنامج مصر الفتاة الأول .

وعدت إلى إخوانى وزملائى فوقعوا على هذا البرنامج الذى وضعته لمصر الفتاة فى الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٣ وكان الموقعون عليه لا يزيدون عن الاثنى عشر . ورأيت أن تكون الصرخة هى لسان حال هذه الحركة ، وهى التى جرى على صفحاتها فى الأعداد الأولى أول آمالى فى مصر الفتاة . رأيت أن تكون الصرخة وهى التى أسميناها بهذا الاسم منذ أربع سنوات معبرة عما فى نفوسنا من إيمان وما لنا من برنامج فبحثت عنها حتى وجدتها ، فى حوزة شخص غير صاحبها القديم . فكتبت معه عقدا بمقتضاه يضع الجريدة تحت تصرفنا مقابل إيجار معلوم ... وفى ٢١ اكتوبر سنة ١٩٣٣ وعلى صفحات العدد الثالث من الصرخة أعلنا برنامج جمعية مصر الفتاة ، وهكذا بدأ الفصل الأخير أو بالأحرى بدأ الفصل الأول من جهادى فى سبيل تحرير أمتى ووطنى وتحقيق المجد لبلادى . فلم يكن كل الذى مر سوى تمهيد لهذه الخطوة الأخيرة التى كانت تجول فى فكرى وقلبى منذ أمد بعيد . وقد قدمت البرنامج بنداء دعوت فيه إلى عشر سنوات من الإيمان والعمل وإنى إذ أعيد نشر هذه الكلمات بعد اثنتى عشرة سنة من هذا التاريخ ، أشعر بالشوط الكبير الذى قطعناه والذى بقى علينا أن نقطعه .

وإذ أستعرض الحوادث الكثيرة التى مرت بى منذ ذلك اليوم لا أجد حادثا واحداً لا يؤكد ايمانى بكل الحقائق التى قدمتها لك ويدفعنى إلى الأمام دائما .. فمنذ اثنتى عشرة سنة ونحن نتطور ونسير دائما من فوز إلى فوز ومن نجاح إلى نجاح .. ودائرة مصر الفتاة تتسع أكثر فأكثر .

واليك نص برنامج مصر الفتاة فى صورته الأولى وما صدر به من نداء

نـــداء

يا شعب مصر

أيها الشعب الذى صاحب الزمن ... يا أمجد شعب فى الوجود وأعظمه ... لقد حانت ساعة اليقظة ... لقد حانت ساعة العمل ... بل لقد حانت ساعة الجهاد ... وهذه هى مصر الفتاة تتقدم إليك لتجاهد عنك ولتذود عن حياضك . ولترفع صوتك ولتطعم جائعك ، ولتعلم جاهلك ولترد عليك كرامتك ، ولتعيد إليك سابق مجدك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يا شباب مصر

لقد طال ما رقدنا وها نحن أولاء قد صحونا ... لقد طال ما أهملنا وها نحن أولاء قد حرصنا .. لقد طال صمتنا وها نحن أولاء قد تكلمنا وإذن فليكن صوتنا مدويا ولتكن صرختنا من الأعماق ، وليكن إيماننا جبارا يدك الجبال ، وليكن شعارنا مصر فوق الجميع .

إن الأجانب يغزوننا ويسدون علينا طريق الحياة ... والاحتلال قطّع أوصالنا وحرمنا السودان ... والأمية والجهل يخيمان على سوادنا ويملآن القلوب حيرة وظلاما ... والأزمة فتاكة تهلك الحرث والنسل وتسلبنا القوت والماء ، ونحن فى كل ذلك نلهو ونتخاصم .. ونحارب بعضنا حتى لقد سقطنا صرعى ، ووقف العدو يشاهد كل هذا باسما ظافرا فخورًا ... أنه تغلب على النسر المصرى بأهون سبيل .

وواجب الشباب أن يصلح كل هذا ... وها نحن نفعل .. لسنا نريد أن نتكلم كثيرا ولكننا ندعوا الشعب للايمان بحقه وقوته وندعوه لعشر سنوات من الايمان والعمل لله والوطن .. نابذًا الخلافات الحزبية .. مهملا ما اعتاد الناس أن يسموه سياسة .

ونحن نقدم اليوم عناصر هذا الايمان ، وعناصر هذا العمل ، برنامجًا معنويا زراعيا وتجاريا وصناعيا وعلميا واجتماعيا .. يتبسط حتى ليشمل أدق التفاصيل وما ذلك إلا ليكون السبيل واضحا وممهدا .. وهو ليس تفكير يوم وليلة ولكنه عمل خمس سنوات قضيناها فى التحضير والدرس والإيمان .. والآن وقد خرجنا إلى ميدان الجهاد ، فنحن نعلن رسالتنا .. نعلنها لك يا شعب مصر ، ويا شبابها . دعوة بريئة مخلصة لا تتصل بشخص من الأشخاص ، ولا ترمى لغاية إلا لسعادة مصر ومجدها .. إنها دعوة صادرة من القلوب فلتنفذ إلى القلوب ، وهى صادرة من الأرواح إلى الأرواح فلا تسخروا منها إن لم تعاونوها ، ولا تحاربوها لأنها لم تمسكم بشر ، فهى عقيدة مخلصة مقدسة ، وستنتصر فى النهاية كما ينتصر كل إخلاص وإيمان .. ستنتصر بالرغم مما يوضع فى طريقها من عقبات .. بالرغم من القوات التى ستحاربها .. بالرغم من القوات الهدامة التى ستكرس نفسها للقضاء عليها ...

سننتصر ، لأننا سنحتمل كل شىء من أجلك يا مصر .

ولأننا سنضحى فى سبيلك يا مصر .. ولأننا سنموت وكلمتنا الوجيدة :

مصـر فـوق الجميـع

أحمد حسين

المحامى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

برنامج مصر الفتاة ومبادئها

إيمـــاننا

مصر التى علمتْ الإنسانية وأضاءت على العالمين . مصر التى رفعت لواء الأديان جميعا وأعلت كلمة الله والإسلام ، مصر مركز العالم وزعيمة الشرق بعد أن طهرتها الآلام وصقلتها المحن . بعد أن حاربها الزمان فارتد وانهزم ، لن تموت أبدا بل ستبعث من جديد لتعيد سيرتها الأولى منارة للعالم وتاجا للشرق وزعيمة للإسلام ، وهى من أجل ذلك فى حاجة إلى دم الشباب الملتهب . فى حاجة إلى الإيمان والعمل ، فى حاجة إلى نفر من بنيها يقابلون الموت ويستعذبون الألم ويرحبون بالتضحية . وتلك صفات لن تتوفر فى أبناء الجيل القديم .

شعارنـا

الله ـ الوطن ـ الملك

يجب أن نعبد الله ، وأن نعلى كلمته .
يجب أن نقدس الوطن . ونفنى فى سبيل مجده .
يجب أن نعظم الملك ، وأن نلتف حول عرشه .

غايتنـا

أن تصبح مصر فوق الجميع . امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام .

جهـادنا العـام

١ ـ يجب أن نشعل القومية المصرية . ونملأ نفوسنا إيمانا وثقة واعتزازا .. ويجب أن تصبح كلمة « المصرية » هى العليا وماعداها فلغو لا يعتد به . ويجب أن يؤمن الجميع بأن إرادة الشعب من إرادة الله ، وأن مصر يجب أن تصبح فوق الجميع .

٢ ـ يجب أن نضع الأجانب فى مركزهم الطبيعى ضيوفا فى مصر وليسوا أصحابها . وذلك يكون بإلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة بجرة قلم . وتمصير الشركات الأجنبية . وجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الحياة التجارية . ويوم الجمعة يوم عطلة عامة . وعدم التصريح لأجنبى بمزاولة عمل فى مصر إلا بتصريح خاص .

٣ ـ يجب أن نؤمن بأن الفلاح هو تاج مصر وسر قوتها . وأنه الحقيقة الوحيدة التى لم تتبدل فى العالم منذ ستة آلاف سنة . وهو الذى أبقى مصر نابضة قوية حتى اليوم . فيجب أن نعلم الفلاح :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن نقضى على الأمية والجهل ، ونرتقى بمعيشته ، فنضمن له اليسر والرخاء ، ونحفظ له صحته ، وندخل إلى بيته الجديد النور والهواء والماء النقى ! .

جهادنا الاقتصادى

فى الزراعة :

٤ – يجب أن نرتقى بالزراعة التى تكون ثروة مصر الحقيقية ، فنجدد وسائلها وننوع محاصيلها ، ونزرع أراض جديدة ، ونشق الترع وننشىء المصارف ، ونعمل لمضاعفة الإنتاج أضعافا مضاعفة .

٥ – يجب أن يعم نظام التعاون كل مدينة وفى كل قرية ، بل وفى كل ضيعة ، لإقراض الفلاحين وتوزيع البذور واستخدام الآلات وبيع الحاصلات وتنظيم المعاملات .

فى الصناعة :

٦ – يجب أن تسترجع مصر مركزها القديم كدولة صناعية تمد الشرق القريب والبعيد بالمصنوعات والحاجيات المختلفة .. فيجب أن نشيد المصانع لنغزل كل قطننا ، وصوفنا ، وكتاننا ، ويجب أن نشيد المصانع للصناعات الكيمائية والزراعية والحديدية .. وتمهيدا لهذا الانقلاب يجب أن ينشأ بنك صناعى لتمويل المشاريع المختلفة ، وأن تتولد الكهرباء من خزان اسوان .

٧ – يجب أن توضع الحماية الجمركية اللازمة لحماية المصانع الوطنية ، وأن تحتم الحكومة على موظفيها وعلى طلبة مدارسها أن تكون ملابسهم من المصانع المصرية ، وأن تفضل الحكومة دائما المصنوعات المحلية مهما كان ثمنها مرتفعا .

٨ – يجب أن ينشط استغلال الثروات المدفونة فى باطن التربة المصرية العظيمة ، فنستخرج البترول والحديد والذهب والنحاس وغيرها من المعادن التى تحتاج إليها الصناعات المختلفة ، والتى توجد فى الصحارى المصرية العظيمة بوفرة .

فى التجارة :

٩ – وفى التجارة يجب أن نحتكر تجارتنا الداخلية ، فلا نأكل إلا كل ما هو مصرى ، ولا نلبس إلا كل ما هو مصرى ، ولا نشترى إلا من مصرى ، كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

١٠ – يجب أن نستولى على تجارتنا الخارجية ، ونتصل بدول الشرق القريب والبعيد لنحمل إليها ومنها المتاجر ، وأن نقوم بدورنا الطبيعى فى تجارة العالم كوسطاء بين الشرق والغرب . ولكى نتبوأ هذا المركز يجب أن نعيد بناء أسطول مصر التجارى ، لينقل متاجرنا ، وليرفع العلم المصرى فى أنحاء البحار .

١١ – يجب أن تستعد موانينا لهذه الحركة العظيمة ، فنوسع ميناء الإسكندرية ، وننشىء ميناء دمياط ، ونحول بعض موانينا إلى موان حرة لا تتقاضى الحكومة عن البضاعة الموجودة بها ضرائب .

١٢ – يجب أن يؤلف أسطولنا الجوى على نطاق واسع ، وأن تنشأ المطارات فى كل المدن المصرية ، وأن تنشأ الخطوط التى تصل مصر بجميع البلدان العربية ، وبكل أفريقيا ، وبلاد أوروبا الهامة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٣ ـ يجب أن نمهد الطرق من الإسكندرية حتى اسوان . وأن ننظم الملاحة فى النيل والترع . وأن نمد الخطوط الحديدية إلى كل مكان .

١٤ ـ يجب أن ينشأ بنك مركزى للإصدار ، ليجارى هذا التقدم التجارى ويزكيه ، وأن يصلح نظام الائتمان بحيث يكون وسيلة لخدمة التجارة ومدها برءوس الأموال .

جهادنا العلمى

١٥ ـ ومصر ، التى ستتزعم الشرق وتضىء على العالم ، يجب أن تستمد هذا النور من قرائح أبنائها ، فيجب أن يصبح التعليم الابتدائى مجانا ، وأن تقل نفقات التعليمين الثانوى والعالى لتكون فى متناول أفقر الطبقات ، ويجب أن تنشأ معاهد الدراسات المختلفة فى كل نواحى الحياة ، وأن ترصد لها المخصصات ليعيش منها العلماء والباحثون .

١٦ ـ يجب أن تفتح الجامعة أبوابها على مصراعيها لكل من يريد الانتساب إليها من مصر أو الشرق ، وأن تشجع البحث العلمى ، وأن ترسل البعثات إلى سوريا وفلسطين والعراق وإيران والهند ومراكش وغيرها ، لتبحث وتنقب وتعلم وتنشر العقلية المصرية فى أرجاء العالمين .

١٧ ـ يجب أن نهتم بالحفريات الخاصة بالآثار لنكشف مغاليق التاريخ المصرى فى عصوره المختلفة ولنخرج الكنوز التى لم تكشف بعد .

١٨ ـ أما فى الطب ، فيجب أن يعاود المصريون نبوغهم وإعجازهم الفنى ، لينقذوا الشعب فى مصر ، ولينقذوا الإنسانية من الأمراض التى تفتك بها .

١٩ ـ أما الأزهر ، فله دور عظيم يجب أن ينهض به ، وأن يستعيد مركزه القديم ، ويجب أن تسرى رسالته فى أنحاء العالم ، وأن يرتفع صوته عاليا بين الأمم الإسلامية . ويجب أن تفتح المدارس والمعاهد باسمه لتعليم اللغة العربية والإسلام فى كافة أنحاء الشرق والغرب ، وفى أمريكا أيضا ! .. ويجب أن يتطور ويستخدم الأساليب الجديدة فى إعلاء كلمة الحق والدين .

٢٠ ـ يجب أن تنشىء الحكومة المؤسسات لمساعدة المكتشفين والمخترعين .

٢١ ـ يجب أن يكون فى كل قرية مكتبة وأجهزة للراديو لسماع التعاليم الدينية والخلقية والعمرانية .

جهادنا الاجتماعى

فى الدين والأخلاق :

٢٢ ـ يجب أن نعيد للأديان كامل احترامها وقداستها .

٢٣ ـ يجب أن نرقى الأخلاق ، وأن نحارب الدعارة والخمور والتخنث .

٢٤ ـ يجب أن نعلم الصدق ، وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون ، وأن يحب بعضنا بعضاً .

٢٥ ـ يجب أن نقدس الشرف والواجب ، وأن نقلل من اللهو والمزاح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٦ ـ يجب أن يصبح التجنيد إجباريا للجيش ، وأن تنقص مدة الخدمة فيه ، وأن يمتلىء الشباب بالروح العسكرى .

فى الأسرة :

٢٧ ـ يجب أن تنظم الأسرة على قواعد قوية من الحب ، والاحترام المتبادل بين الأبناء والآباء ، والجهاد المشترك ، والوفاء بين الزوج وزوجته .

٢٨ ـ يجب أن نعنى بالطفولة باعتبار أنها مصر المستقبل .. مصر العظيمة .. فيجب أن نعدهم ليكونوا علماء وغزاة ونوابغ وعمالا منتجين

٢٩ ـ يجب أن نرقى المرأة ونعلمها العلم الكامل ، لكى تكون زوجة صالحة ، ولتكون أما تخلق الأبطال ، وليكون بيتها نعيم الحياة .

٣٠ ـ يجب أن نقضى على الأنظمة البالية التى تعرقل حركة الزواج ، فتلغى المهور الباهظة والحفلات الهوجاء .

فى الصحة :

٣١ ـ يجب أن يكون للصحة العامة المقام الأول فى جهود مصر الفتاة . ويجب أن تكون سياسة الصحة هى سياسة الوقاية لا سياسة العلاج . وإذن فيجب أن ينصرف الجهد إلى حماية الطفولة .. وإلى حماية الأبصار وإلى حماية الأبدان من الأمراض المتوطنة .

٣٢ ـ يجب أن توضع قوانين صارمة لإحلال النظافة فى كل شىء ، ويجب أن يجند الشعب فى الملاعب الرياضية ، لنخلق جيلا كاملاً قويًّا سليما .. وتمهيدا لذلك يجب أن ينشأ ملعب كبير بالقاهرة .

فى التأمين الاجتماعى :

٣٣ ـ يجب أن ينظم التأمين الاجتماعى بحيث يصبح لكل فرد فى الأمة الحق فى أن يكون له عمل يعيش منه ، وإذا كان عاجزا لا يستطيع العمل وجد الملاجىء ليأوى إليها .

٣٤ ـ يجب أن تعد المستشفيات بحيث تتسع لقبول أى مريض يلجأ إليها ، وأن تنشأ فروع لكل أنواع الأمراض .

٣٥ ـ يجب أن يصبح الشعب شعبا مدخرا ، وأن يقلع عن الإسراف ، بتكوين رءوس الأموال اللازمة لتكوين الامبراطورية المصرية .

٣٦ ـ يجب أن يكون للشعب أعياده ليحتفل بها كما يليق بشعب كبير لتكون أعظم مشجع على المضى فى طريقه إلى الأمام .

الأغانى والفنون :

٣٧ ـ يجب أن تتبدل الأغانى لتكون مليئة بالقوة والحياة ، أن يحفظ المصريون النشيد القومى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويجب أن نعيد إلى الفنون عظمتها الفرعونية والعربية ، حتى تقف فى خدمة البعث والإحياء ، لا أن تكون وسيلة للهو والفجور .

القاهـــرة :

٣٨ ـ ويجب أن تنظم القاهرة تنظيما يليق بعاصمة الشرق فتؤلف لها بلدية ، وتوضع المشاريع لتجديدها وتنظيم أبنيتها وإزالة الأحياء القديمة بأسرها .

ويجب أن تطبع فى تخطيطها بالطابعين العربى والفرعونى ، وأن تبنى منشآتها العامة على هذا الطراز ، وأن تنظم ميادينها وشوارعها وحدائقها كذلك ..

وسائلنـــا

أما وسائلنا للوصول إلى كل ذلك فليست حربا وقتالاً ، وليست عدوانا أو صداما ، ولكنها تتلخص فى كلمتين :

الإيمـــان ... والعمـــل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحـو العمـــل

٥

كان أول إجراء فكرنا فيه لنبدأ كفاحنا أن نرفع صورة من برنامجنا إلى جلالة الملك المغفور له أحمد فؤاد ، وكان لا يزال يقيم فى الإسكندرية ، حيث يمضى فصل الصيف . فكلفت أحد الخطاطين المهرة أن يكتب لى البرنامج على ورق فاخر بخط جميل . فأحسن القيام بهذه المهمة . ووضعت البرنامج داخل مظروف كبير وسافرت إلى الإسكندرية ، وتوجهت على الفور ، إلى سراى رأس التين ، فاستقبلنى الأمناء هناك ، وعلى رأسهم محمد بك حسين . الذى كان يعرفنى من قبل بمناسبة مشروع القرش . وبعد أن وقعت فى دفتر التشريفات باعتبارى رئيس جمعية مصر الفتاة ، قدمت إليهم رسالتى التى حضرت إلى الإسكندرية لرفعها لجلالة الملك . فأسرعوا إلى فضها ، وتلاوة ما فيها ؛ حتى إذا ما وصلوا فى تلاوة البرنامج إلى الفقرة الخاصة بغايتنا والتى تقول «وغايتنا أن تصبح مصر فوق الجميع ، امبراطورية عظيمة تتألف من مصر والسودان ، وتحالف الدول العربية ، وتتزعم الإسلام» لم يكد القوم يصلون إلى هذه العبارة حتى غصت بها حلوقهم وجحظت أعينهم ، ونظروا إلى فى ريبة وتشكك ... من أنا ؟ أمجنون أم عاقل ؟ وراحوا يتناجون فيما بينهم ، ويعرض كل منهم على زميله هذه العبارة فلا يلبث أن يدهش الدهشة كلها . ويتساءل عن ماهية الموضوع ، وممن أكون ، فيقدمونى له كسكرتير لمشروع القرش ، فيرفع حواجبه فى استغراب وتعجب !. وأخيرا جاء أحد الأمناء فأخرجهم من هذه الدهشة ، إذ سألنى «هل سبقت لك معالجة الروايات التمثيلية ؟ إنك تجيد التأليف بدرجة مدهشة ، إن لك خيالاً ساخرا .. » وزاح يسخر ويهزأ على هذه الوتيرة . ولقد واجهت هذه العاصفة من الدهشة والسخرية والاستنكار بهدوء وصبر !. إذ كنت قد وطدت نفسى على احتمال كل شىء فى سبيل دعوتى . وكنت أقدر سلفا ما سوف يلاقينى من صعوبات وويلات واضطهادات .

طلبت إلى القوم أن يرفعوا رسالتى إلى جلالة الملك بالرغم من آرائهم فيها ، ولكن واحدا منهم لم يجسر على أن يمس الرسالة بيده !. فقد تحولت فى نظرهم إلى عمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منكر ، قد يعرضهم لما لا تحمد عقباه . وراحوا يتفاوضون ويتداولون فيما يعملونه ، وأخيراً استقر رأيهم على إبلاغ الموضوع لعبد الوهاب بك طلعت ، وكيل الديوان فى ذلك الوقت ، فحملوا إليه الرسالة . وقد كان الرجل أكثر إدراكا منهم ، فلم ير حرجا فى استقبالى وسماع ما جئت من أجله !. فتمت المقابلة وتلطف معى ووعدنى بالنظر فى موضوع رسالتى ، ورفعها إلى جلالة الملك ، ففرحت غاية الفرح ، وخرجت من القصر وأنا أتنفس الصعداء إذ فرغت من هذه المهمة التى كان لا بد من القيام بها لدى جماعة جعلت تعظيم الملك ، والالتفاف حول عرشه أحد شعاراتها !.

لم أعرف مصير هذه الرسالة إلا بعد انقضاء فترة طويلة من الزمن قد تبلغ الشهر ، عندما استدعانى محمود فهمى القيسى باشا وزير الداخلية فى وزارة عبد الفتاح باشا يحيى ، التى كانت فى الحكم فى ذلك الوقت ، وأطلعنى على هذه الرسالة وقال : إن القصر الملكى قد حولها إليه ليتكلم معى فيها . وقد أثنى الرجل على الروح التى انطوت عليها مبادئ حزب مصر الفتاة ، وراح يحدثنى عن حماسته لتشجيع الصناعات المصرية ، وكيف أن أثاث مكتبه فى الوزارة مصنوع كله فى مصر ، ودعانى للتعاون معه فى تحقيق كل ما يمكن تحقيقه من برنامج مصر الفتاة بصدد تشجيع الصناعات المصرية . ولقد علمت فيما بعد ، وبعد انقضاء أكثر من سبع سنوات على تأسيس مصر الفتاة ، عندما قابلت المرحوم زكى باشا الابراشى لأول مرة ، وقد كان متقاعدا فى ذلك الوقت ، أن جلالة الملك فؤاد تقبل برنامج مصر الفتاة بقبول حسن ، وابتهج ابتهاجا عظيما لروح الإخلاص الذى تفيض به كل عبارات البرنامج المذكور ، وروح التعمق فى دراسة المشاكل المصرية . وأنه استدعى زكى باشا الابراشى ناظر خاصته وموضع سره وأطلعه على هذا البرنامج ، مزهوا بالشباب المصرى الذى وصل إلى هذه الدرجة من النضوج . وقال له إن هذه الروح هى التى يجب أن تزدهر فى مصر ، ولا بد لازدهارها من أن تبتعد كل البعد عن القصر ، لئلا يحاربها الإنجليز حربا باطشة ، فإنَّ أخشَى ما أخشاه أن يظن الإنجليز أننى المحرض للشباب على السير فى هذا الطريق ، فيبطشون بهم ، فلا ينبغى أن تكون لهم بنا أى علاقة أو صلة على أن ذلك لا يمنع أن توصى بهم وزير الداخلية القيسى لكى يبذل لهم كل عون مستطاع . ولقد فسر لى هذا الحديث المتأخر ، سر دعوة القيسى باشا فى ذلك الوقت للتعاون معه ، والتى لم أكن أدرك لها معنى بعد أن كانت الحرب قد أعلنت بين وزارة الداخلية وبين مصر الفتاة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر الفتـاة والشبـاب

ولندع حديث الحكومة وموقفها من مصر الفتاة ريثما نتحدث أولاً عن موقف الشباب منها .

خرجت مصر الفتاة إلى الوجود فى صورتها الأخيرة ، بهذا النداء ، وهذا البرنامج الذى أذعناه فى طول البلاد وعرضها . فهؤلاء الذين عملوا فى مشروع القرش والذين طافوا بالقطر المصرى ، فى أثناء دعوتهم لهذا المشروع ، قد انطلقوا فى ليلة واحدة ، شرقا وغربا ، يوزعون مئات وألوفا من هذا النداء ، بحيث أحست البلاد من أقصاها لأدناها بهذه القذيفة الجديدة .

ولقد كانت قذيفة من غير شك فلم يسبق لحزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات ، أن تقدمت للشعب المصرى بهذا البرنامج الكامل ، الذى يتناول مختلف المشاكل المصرية ، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية .. لم يسبق لمصر أن عرض عليها مثل هذا المشروع لإعادة بناء كيان البلاد . فالوفد الذى يمثل أغلبية الرأى العام لم يكن له برنامج واضح محدود ، فيما خلا هذه العبارة العامة الغامضة «السعى لتحقيق استقلال مصر ما وجد لذلك سبيلاً» . ومن قبل ذلك ، كان الحزب الوطنى يكافح فى سبيل إجلاء الإنجليز ، وكان زعيماه مصطفى وفريد يقدران خطورة المسائل الاجتماعية والاقتصادية فى كفاحها ضد الأنجليز ، ولذلك فقد عملا على نشر التعليم ، وتأسيس الجامعة ، وتدعيم الحركة التعاونية فى البلاد ، ولكن جهدهما الرئيسى كان موجها للكفاح من أجل الجلاء ، ونشر الدعاية للقضية المصرية فى أنحاء العالمين ، فلم يكن للحزب الوطنى برنامج مفصل . ولقد وجدت فى مصر بعد إنشاء الوفد هذه الأحزاب الطفيلية التى انشقت على الوفد وخرجت عليه ، وهذه بدورها لم يكن لها برنامج ولا هدف محدود ، إلا محاربة الوفد والتعاون مع الإنجليز ، ليكون ذلك سلما للوصول إلى الحكم . فلم تكن لها مهمة فى الداخل ، أو الخارج ، إلا تقلد مناصب الحكم . وظلت البلاد — حتى خرجت مصر الفتاة إلى الوجود — ليس لها برنامج كامل شامل ، يتناول نواحى الحياة المصرية بالدرس والتحليل ، ويضع العلاج لكل قضية من القضايا ، أو مسألة من المسائل . واليوم ، وبعد انقضاء ثلاثة عشر عاما من إذاعة برنامج مصر الفتاة ، فقد تعددت البرامج ، وتسابقت الهيئات والجمعيات والأحزاب ، بل والحكومات ، فى نشر برامج إصلاحية . بل إن من هذه البرامج ، ما قد يذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه مصر الفتاة فى بعض أجزاء برنامجها ، وليس ذلك كله إلا آية نجاح مصر الفتاة وانتصارها ، فقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت أول دعوة مصرية رسمت لإحياء مصر وإنهاضها ، مشروعا كاملاً ، ينتهى بمصر إلى تحقيق كل ما تصبو إليه من مجد وحرية ... ومازلت أذكر ، حتى هذه الساعة ، تعليق سعادة على باشا إبراهيم على برنامج مصر الفتاة ، إذ وصفه لأعضاء مجلس إدارة جمعية القرش بأنه أشبه الأشياء ببرنامج موسوليني لإحياء إيطاليا ، وراح على باشا إبراهيم يتحدث فى حماسة وحرارة عن الصدى الذى تركته فى نفسه تلاوة هذا البيان فكان أجمل مكافأة شعرت بها فى هذه الأيام ، أن أسمع من فم ذلك الجراح العبقرى مثل هذا الثناء على برنامج مصر الفتاة . وحدِّث عن حماسة الشباب التى استقبلوا بها برنامج مصر الفتاة .. هؤلاء الشباب الذين تحمسوا لمشروع القرش بالأمس ، سرعان ما أدركوا أن مصر الفتاة ليست سوى الخطوة الطبيعية التى ينبغى أن تتلو ما صادفناه من نجاح فى مشروع القرش ، فأقبلوا على إدارة جريدة الصرخة ، التى اتخذنا لها مقرا فى مكتب أحد المحامين بشارع محمد على ، فكانت تغص بأرقى طبقات الشباب المثقفين من طلاب الجامعة وخريجيها من المحامين والأطباء والمهندسين ، ولا تزال جريدة الصرخة تحمل آثار هذا الرعيل الأول من الشبان ، الذين لبوا صرخة مصر الفتاة الأولى ونداءها ، وهرعوا من كل فج عميق يبايعونها ، ويأخذون على أنفسهم العهد والميثاق أن يمضوا حتى النهاية فى نصرتها .

مصر الفتـاة والوفـد

ولكن ميلاد مصر الفتاة قد أحدث انزعاجا فى دوائر الوفد العليا ، فقد نظرت إليها نظرة شك وريبة ، وكان على أن أواجه هذه المشكلة أول ما أواجه ... فقد سبق للوفد أن أبدى عدم ارتياحه لمشروع القرش ، فى مراحله الأولى ، إذ توجس منه خيفة ، وساورته الشكوك والوساوس . كان الوفد يحارب فى تلك الأيام وزارة صدقى باشا ، وكان أقصى ما يتمناه أن يكرس الشبان كل نشاطهم ، وكل جهدهم ، لمحاربة صدقى باشا وإسقاط حكومته . فلما أن دعوت إلى مشروع القرش ، وهو مشروع قومى بحت لا يمت إلى الحزبية بصلة ، ويعتمد على معاونة كل مصرى بدون تفريق بين الحكومة والشعب ، أو بين حزب وحزب ، لم ترق هذه الدعوة لدى الدوائر الوفدية ، ورأوا فيها محاولة لإضعاف كفاح الوفد ، وصرف الشبان عن الاشتغال بالسياسة الحزبية ، والتفرغ للمسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وهو ما كان الوفد ينفر منه أشد النفور فى ذلك الوقت ، باعتباره صارفا لجهود الأمة ، ومهدئا من حدة كفاحها . وغنى عن البيان أننى لم أكن أشاطر الوفد هذه النظرة ، فأنا منذ الساعة الأولى التى عرفت فيها نفسى أؤمن أشد الإيمان بضرورة الكفاح الاقتصادى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاجتماعى والعمرانى ، إلى جوار الكفاح السياسى . بل إن غاية الكفاح السياسى هى أن يتاح للأمة أن تنهض وترقى بدون عائق يعترض مشيئتها . فكل عمل فى سبيل الاستقلال الاقتصادى هو عمل فى سبيل الحرية ، وكل عمل من أجل الحرية هو وسيلة للوصول إلى الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى والروحى . ولذلك فلم ألق بالاً لاعتراض الجرائد الوفدية ضد مشروع القرش فى بادئ الأمر ، ومضيت فى طريق لا ألوى على شىء ، إلى أن تبنت الأمة كلها المشروع كما رأينا ، وأصبح مشروعا قوميا ، يتحمس له كل مصرى . فلم يسع الوفد إلا أن يجارى التيار فى ذلك الوقت ، وخف النحاس باشا إلى تأييد المشروع ، وإنى لأذكر الآن هذه الليلة التى ذهبت فيها إلى دار مصطفى باشا النحاس بمصر الجديدة ، لأتلقى منه اكتتابه فى مشروع القرش ، وكان الوفد هذه الليلة مجتمعا ، فتبرع النحاس باشا بخمسة عشر جنيها ، وتبرع كل عضو من أعضاء الوفد بجنيه ، ثم رُئِيَ أن يضاعف النحاس باشا اكتتابه ، فزاد المبلغ إلى ثلاثين . وفى ذلك الوقت دخلت متطوعتان من متطوعات مشروع القرش تعرضان طوابع القرش فاشترى النحاس باشا من كل واحدة منهما بخمسة جنيهات أخرى ، ثم عاد أعضاء الوفد فضاعفوا من قيمة اكتتابهم ، وخرجنا هذه الليلة بما يقرب من السبعين جنيها اكتتابا فى المشروع ، وقد كان إعلان ذلك نجاحا كبيرا إذ استطاع ، فى نهاية الأمر ، أن ينال ثقة الدوائر الوفدية التى كانت لا ترضى عنه أولاً .

على أننى لم أكد أجهر بدعوة مصر الفتاة ، حتى انفجر سخط الوفد ورأى فى ذلك ما يعزز شكوكه القديمة وأوهامه ، من أن مشروع القرش لم يكن إلا خطة مدبرة لتحويل أنظار الشبان عن الجهاد تحت راية الوفد . وبدأت الصحف الوفدية تناوش المشروع وتتهمه بأنه أداة سياسية . فرأيت أن أسرع إلى مقابلة النحاس باشا ، لكى أزيل كل لَبس وغموض فى موقفى ، ولأبرهن له على وطنيتى وإخلاصى ، وأننى سأكون عنصرا معاونا له فى كفاحه ضد الإنجليز ، ولست عنصرا معارضا . وقد قابلنى النحاس باشا فى بيت الأمة ، ولا زلت أذكر هذه المقابلة الأولى بينى وبين رئيس الوفد ، والتى كان معنا فيها الأستاذ حسن يس فى أحد أركان القاعة .

واجهنى النحاس باشا كعادته مهاجما بسيل من الاتهامات ، فلا بد أن أكون صنيعة للأبراشى باشا ناظر الخاصة الملكية ، الذى كان يسيطر على السياسة المصرية فى ذلك الوقت ، وكان الوفد يعتبره خصمه اللدود . ويعلم الله أننى لم أكن رأيت الإبراشى باشا هذا فى حياتى ، بل إنى لم أره إلا بعد بضع سنوات من هذه المقابلة ، وبعد أن زال كل سلطان للإبراشى باشا ، بل وبعد أن أصبح مرضيا عنه من الوفد بالذات . ومع ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد اتهمنى النحاس باشا بأننى صنيعة له ، وأنه قد اختارنى لكى أحارب الوفد بأسلوب ملتو . وكانت حجة النحاس باشا الكبرى فى اتهامه لى تتلخص فى المال الكثير الذى تخيل أننى أنفق منه على حركة مصر الفتاة ، فقلت له هل إذا استطعت أن أثبت لك مورد رأس مالى فى جهادى ، وإذا استطعت أن أثبت لك براءته وطهارته من كل شائبة ، فهل يرضيك ذلك ويقنعك أننى لست صنيعة للابراشي ، وإنما أنا شاب وطنى مجاهد ، يتلمس السبيل لنصرة بلاده . إذن فاعلم يادولة الباشا أننى بمجرد تخرجى من كلية الحقوق سعيت لعقد قرض فى بنك مصر بمبلغ مائتى جنيه ، بضمانة أحد أصدقائى وهذا المبلغ الصغير المتواضع هو الذى بدأت به عملى فى الحياة ، وهو الذى أنفق منه على جريدة الصرخة ، وهو الذى أنفق منه على جمعية مصر الفتاة ، فى مقدورى أن أطلع دولتك على مصاريفنا بالتفصيل ، لترى أننا لسنا أغنياء ، كما تتوهم ، وأنه لا مورد لنا إلا ثمرة مجهودنا فى تحرير المجلة ونجاح توزيعها .

ولقد أسرعت على الفور فأطلعت الباشا على بعض الأوراق التى تثبت صحة ما أقول . ولكن الرجل ظل يرتاب فيما أقول . وانتقل من الشكل إلى الموضوع ، وأخذ يتفحص مبادىء مصر الفتاة ، ويناقش محتوياتها ، ثم وقف طويلاً أمام شعارنا « الله ـ والوطن ـ والملك » وقد كان من الواضح أن هذا الشعار المثلث يضايقه كل المضايقة ، ومازلت أذكر حتى الآن اعتراضه على وضع كلمة الله فى برنامج سياسى وكيف رأى فى ذلك لونا من ألوان الشعوذة ، ثم حام حول كلمة الملك ولكنه لم يقل إلا خيرا . ولقد رحت أحاجه على الفور ، وأرد على كل اعتراضاته ، ومازلت أذكر قولتى ردا على اعتراضه على ابتداء الشعار بكلمة الله : « إن الذى لا خير فيه لربه لا يمكن أن يكون فيه خير لوطنه أبدا . وكل عمل لا يبدأ باسم الله فهو عمل لا ينجح ، وإننى أؤمن كل الايمان أن التدين والوطنية يسيران جنبا لجنب ، فكلاهما يفيض من نبع واحد ، نبع المحبة للمثل الأعلى والحق والعدالة . »

ولقد تضايق النحاس باشا أشد المضايقة لمناقشتى إياه ، ورأى فيها اجتراء عليه ، فراح ينعى علىّ عدم انضمامى إلى الوفد والعمل تحت لوائه ، مع أن هذا هو السبيل الوحيد لإبراز وطنيتى . والكفاح فى سبيل بلادى ، وتوعدنى أن مصيرى لن يكون غير الخذلان والفشل الذريع الذى كان من نصيب كل من حاول الخروج على الوفد أو التصدى لمحاربته . ولأن الأمة لم ترحم أحدا خرج على الوفد وانشق على زعامته . وراح دولته يعدد لى أسماء الذين خرجوا على الوفد ، أفرادا وجماعات ، وكيف نبذتهم الأمة وهدمتهم وحطمتهم تحطيما . فأسرعت بالرد على دولته ، مظهرا له أننى استطيع أن أخدم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلادى . بل وأن أخدم الوفد نفسه ، باستقلال حركتى . فإن وجود حركة وطنية متطرفة إلى جوار الوفد تفيده ولا تضره . تفيده لأنها تظهره أمام الإنجليز والأجانب بمظهر الاعتدال . فيسرعون إلى التفاهم والاتفاق معه ومقابلته فى منتصف الطريق ، وقيام هذه الهيئة المتطرفة لا يضر الوفد . لأنها لا تنتسب إليه . وهكذا يستطيع الوفد أن يكسب من وجودنا . ولا يخسر . وأن يكسب للأمة ، بأسلوبه وطريقته ، ما يستطيع من مكاسب ومغانم .. أما عن التهديد الذى وجهه إلى فقد قلت له «إننى رجل مؤمن ولا توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تنال من المؤمن ، وإذا كان النحاس باشا قد نجح فى هدم كل الذين خرجوا عليه فما ذلك إلا لأنهم كانوا يستحقون الهدم ، بل كانوا يحملون عناصر هدمهم فى نفوسهم . أما بالنسبة لى وإخوانى فنحن نحمل فى أنفسنا كل عناصر الصلاحية للحياة . نحمل الإيمان والشباب والإخلاص ، وليس وراء ذلك أسلحة يمكن أن تكفل لنا النصر فى معركة الحياة» .

وعند هذا الحد انتهت المقابلة . وانتهت إلى غير نتيجة حاسمة ، فقد خرجنا منها كما دخلنا غير متفاهمين . بل لعلنا خرجنا منها أكثر افتراقا مما دخلناها . وقد كان ذلك يؤسفنى أشد الأسف . فليس هناك شك فى أن الوفد ، كان فى ذلك الوقت ، يمثل الأغلبية الساحقة لأبناء البلاد . وكان يمثل القوة الشعبية التى ترفع لواء المقاومة فى وجه الانجليز ، وفى وجه الاعتداء على الدستور . ولم أكن أميل إلى الاصطدام بهذه القوة الشعبية ، بل كنت أصبو إلى أن أوفق فى خلق جو يساعدنى على التفاهم والتعاون مع الوفد ، حتى أستطيع فى ظل هذا التعاون أن أدعو لمبادئى العملية فى أوساط الشعب . ولكنى لم أوفق كما قدمت . ولقد سبب لى ذلك متاعب كثيرة .

بدأت حملة المجلات والصحف الوفدية تشتد علىّ بعد هذه المقابلة ، وبدأت جهود الشبان الوفديين المضادة لمصر الفتاة يظهر أثرها فى الجو . وكان مشروع القرش هو محور هجومهم . فاشاعوا وأذاعوا أننى اختلست بضعة ألوف من أموال هذا المشروع .

وقد كانت هذه أول فرية ضخمة ألقاها فى حياتى العامة ، ومع ذلك فقد رضت نفسى على الصبر عليها ولم تزدنى هذه الأكذوبة إلا ثقة واعتدادا بنفسى ، لأننى أدركت أن خصومى لن يستطيعوا محاربتى إلا عن طريق الخسة والنذالة ، وليس وراء ذلك إلا الدليل على قوتى وصدق جهادى .

واشتدت الحملة على مشروع القرش ومصنع الطرابيش ، وخشيت على هذا المشروع الوليد أن يتصدع تحت ضغط الهجوم الوفدى والدعاية الوفدية ضده ، وكنت حتى ذلك